التّكرار الحجاجيّ وتجلّياته في الأدب الصّغير والكبير لابن المقفّع

د. محمد الشريدة *

د. فريال هديب

تاريخ تقديم البحث: ٢/٢٧ /٢٠١٩م. تاريخ قبول البحث:١١ /٦ /٢٠١٩م.

ملخص

يعدّ خطاب ابن المقفّع في الأدب الصّغير والكبير تأثيريّ المنزع والغاية. وحتى يحقّق مقصده في حمل المتلقّي على الأخذ بطرحه الأخلاقيّ توسّل بشبكة من الإجراءات الأسلوبيّة الحجاجيّة التداوليّة القادرة على خلق تفاعليّة، وتحقيق لغاية الخطاب.

وبرز التّكرار في خطاب ابن المقفّع بوصفه تقنية حجاجيّة ذات دوران، وحضور مكثّف؛ ولذلك توجّه البحث نحو استكناه دور المناويل التّكراريّة في التعبير عن موقف الخطاب من منظومة القيم السائدة، وقدرتها على استمالة المتلقي إلى الأخذ برؤية الكاتب، ودعوته إلى التغيير أخذًا حرًّا دون إلزام أو إكراه.

وانجلت الدراسة عن إدراك ابن المقفّع لفعل أسلوب التّكرار في الإقناع؛ فاتّكلّ عليه مشيّدًا منه نسقًا وظيفيًا؛ عزّز من حجاجيّة دعواته الأخلاقية، ودعّم طاقتها التأثيرية. وأتى التّكرار في مدوّنته وفق أوجه ثلاثة: تكرار عوامل حجاجيّة (النّفي أنموذجًا)، وتكرار كلمة، وتكرار أساليب وتراكيب، تآزرت معًا في تشكيل لوحات نصّيّة تكراريّة تجلّت مترابطة متّسقة ذات اقتصاد لغويّ، وامتداد دلاليّ في إطار إيقاعيّ نغميّ مؤثّر.

الكلمات الدّالّة: أسلوبيّة، تكرار، حِجَاج، نثر عبّاسيّ، ابن المقفّع.

* قسم اللغة العربية، الجامعة الأردنية.

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة. الكرك، الأردن.

Functional Repetition in Ibn Al-Muqaffa' al-Adab al-Saghir and al-Adab al-Kabir

Dr. Mohammed Al-Shraideh

Dr. Faryal Hdaib

Abstract

Ibn Al-Muqaffa's literature in al-Adab al-Saghir and al-Adab al-Kabir is considered influential in all means. In order to convince the reader to accept his code of ethics, Ibn Al-Muqaffa' applied a stylistic technique relying on repetition and arguments to create interaction and achieve his goals.

Repetition is considered a marked feature in Ibn Al-Muqaffa's literature characterized by its argumentative nature. This triggered the researcher to identify the function repetition plays in convincing the reader of Ibn Al-Muqaffa's literature to accept his code of ethics.

This research reveals that Ibn Al-Muqaffa' was aware of the function repetition and argument play in convincing the reader; this is why he relied on them in delivering his message and enhancing its influential nature. Repetition appeared in three different faces: repetition of arguments (negation), repetition of a word, and repetition of a style. These three together created a well-woven, influential and rhythmic literature.

Keyes words: Ibn Al-Muqaffa'/ Repetition/ Stylistic/ Abbasi Literature/ Argumentative

مقدمة:

الأدب التوجيهيّ الإرشاديّ ذو المقاصد التي تستهدف حملَ المجتمع على تبنّي أفكار، وقيم غير حاضرة في واقع الحياة قد لا يحظى بكبير قبول عند المتلقين؛ وذلك لكشفه ما يكتنف منظومتهم الأخلاقيّة والقيميّة من عَورَ ومساوئ. هذه المنظومة التي غدت ثوابت قارّة لا يلحقها السوء والخطأ، فضلا عن أنّ دعوات حمل أفراد المجتمع على التغيير قد تواجه بالحذر والتوجّس، ومن ثَمّ الرفض، وقد تصل ردود الأفعال إلى حدّ المقاومة والمعاداة للمشروع، الذي يتضمّنه الخطاب الأخلاقي، حتى لو كانت فكرة التغيير نحو منظومة قيميّة لا يُختلَف على ضرورة تبنّيها، واعتقادها واقعاً معاشاً؛ لما تحقّقه من منافع للفرد وللمجتمع.

وفي سبيل أن تصل رسالة الخطاب التوجيهيّ، وتنهض بدورها في النفاذ إلى عالم المتلقي والفعل فيه، فإنّ أسلوب تقديمها وعرضها يشكلّ تحدياً عند المنشئ ذي المشروع الأخلاقي؛ لذلك حرص مبدعو هذا اللون النثري على توظيف طرائق واستراتيجيات متنوعة ومتعددة، واستعمالها في تشكيل خطابهم، وبنائه بصورة ترفد طاقتها التعبيرية وتعززها، وتكفل بلوغ حمولات خطابهم الدلالية إلى المتلقين على اختلافهم، والتأثير في قناعاتهم؛ لتتحول الأفكار الجديدة إلى سلوك في الحياة؛ لذلك لا بدّ من أن تتّصف هذه الآليات بالمقدرة على استثارة المتلقي، والولوج إلى عقله وقلبه، وحمله على خلق حوار فعّال مع ذاته، ومع محيطه.

ومدوّنة ابن المقفّع ذات منزع قيميّ تأثيريّ؛ يرى مبدعها أنها ترتقي بمن يتمثّلها، وتضعه على جادّة الصّواب في تعامله مع "الأنا" ومع "الآخر"؛ وعليه فإنّ هذه المدونة تعدّ مجالاً خصباً للقراءة، والتّحليل بالاعتماد على رؤى النظر الحجاجيّ والتداوليّ، بأبعاده الوظيفية في التواصل؛ فهو يمثل قراءة في التّقنيات القوليّة، التي تمكّن المنشئ من إثارة، أو تنمية انخراط العقول في الأطروحات التي تقدّم إليها؛ لتنال رضاها، وتذعن إلى حمولاتها الدلالية.

والخطاب الحجاجيّ خطاب غائيّ معلنُ القصد بإحداث تأثير في المتلقي دون إكراه ودون إلزام؛ لأنّه يعتمد في تحصيل غرضه سبلاً ذات خصائص استدلاليّة تستدرج الآخر، وتدفعه نحو الاقتناع برأي المحاور. ولكي يحقّق هذه الغاية لا بدّ من تخطيط الخطاب الحجاجيّ، والإعداد مسبقًا للكيفيّة التي سيُبنى وفقها، مع مراعاة الانسجام في بنية الخطاب الحجاجيّة واتّساقها، فضلًا عن اختيار

الحجج، وألفاظها المؤثّرة في فاعليّة الإقناع، وكأنّنا نرسم كونًا مصغّرًا، يمثّل الأنموذج الأمثل لما نستهدف إيصال المتلقي إليه(١).

وبما أنّ آليات الحجاج والإقناع، التي تحرّك المخاطَب صوب الفعل والتغيير عديدة، وذات ألوان بنائية مختلفة تنظيرًا، وتطبيقًا في الأدبيات، ولا سيّما عند ابن المقفّع؛ فقد آثرت الدراسة الوقوف عند إجرائيّة حجاجيّة ذات تأثير أولاً، وذات دوران وحضور في خطاب ابن المقفّع ثانياً، إنّها "التّكرار" الذي وقفت عنده دراسات عديدة من جهتي النظرية والتطبيق، والبحث في وظائفه وغاياته وتأثيره في المتلقي(٢).

ولكون التّكرار آلية ذات فعاليّة ناجعة في استمالة المتلقي، واستجلاب موافقته ورضاه، ومن ثمّ اقتناعه بحمولات الخطاب؛ فقد تطرّقت إليه باهتمام الدراسات اللسانية النّصّيّة شعراً ونثراً، مبرزة كيفيّة تعامل النّصّوص مع تمظهرات التّكرار الحجاجيّ في أداء مقاصدها وغاياتها(٣).

وتسعى هذه الدراسة إلى بيان الدور الذي أدّاه أسلوب التّكرار في إحداث تأثير في متلقّي ابن المقفّع العاقل، من خلال العمل على تغيير قناعاته، وتوجيه مفاهيمه، وكسب تأييده وصولًا إلى تبنّي أطروحات الخطاب، وتحويلها إلى سلوك في الحياة، أو تهيئته للعمل بها في الوقت المناسب، وذلك وفق انتقائيّة تحقّق فاعلية إقناعيّة تلائم وضع المتلقي وقدراته، وتستجيب لأفق انتظاره.

(١) انظر: الحباشنة، صابر، **التداوليـة والحجـاج (مـداخل ونصـوص)**، ط١، صفحات للدراسات والنشر، سورية، ٢٠٠٨، حمداوي، جميل، **نظريات الحجاج**، شبكة الألوكة، شارودو، باتريك، **الحجاج بين النظرية والأسلوب**، ترجمة: أحمد الوردني، ط١، دار الكتاب الجديد ليبيا، ٢٠٠٩، صورة، عبدالله، **في نظرية الحجاج (دراسات وتطبيقات)**، ط١، مكسيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ٢٠١١.

(٢) عبيد حاتم، **التّكرار وفعل الكتابة في الإشارات الإلهية لأبي حيّان التوحيدي**، ط١، دار كنوز المعرفة، عمّان، ٢٠١٥، العبد، محمد، **النّصّ الحجاجي العربي** (دراسة في وسائل الإقناع)، **مجلة فصول**، مصر، عدد٦٠، السيد، عبد العزيز، **التّكرار بين المثير والتأثير**، ط١، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٦، الحولي، فيصل، **التّكرار في الدراسات النقدية بين الأصالة والمعاصرة**، ط١، دار اليازوري، الأردن، ٢٠١٥.

(٣) أحمد علي محمد، التّكرار وعلامات الأسلوب في قصيدة نشيد الحياة للشابي، **مجلة جامعة دمشق**، المجلد ٢٦٠، عدد ١ + ٢، ٢٠١٠، زروقي، عبد القادر، **أساليب التّكرار في ديوان "سرحان يشرب القهوة في الكافتيريا"**، لمحمود درويش (مقاربة أسلوبية)، رسالة ماجستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، ٢٠١٢، مفتاح، حنان، **التّكرار في الخطاب الشعري، ديوان "أغاني الحياة" لأبي القاسم الشابي**، رسالة ماجستير، جامعة حمة لخضر، الوادي، الجزائر, ٢٠١٥.

ولجلاء فعل التّكرار في تحقيق مشروع خطاب ابن المقفّع الأخلاقي ارتأت الدراسة السّير في محاور ثلاثة، يُعنى كلّ محور بضرب تكراريّ خاصّ معتمدة التحليل النّصّي، وتتبّع الأمثلة وعرضها، وقراءة وظيفيّة التّكرار في دلالاتها العامة والخاصة، ومدى تآزر الألوان التّكراريّة حين تجتمع في إيجاد شبكة حجاجيّة يدعم كلّ منها الآخر.

أمّا المحور الأول فوسم بـ: تكرار عوامل حجاجيّة، وفيه يسلّط الضوء على النّفي بوصفه عاملا حجاجيًّا سيطر على توجيه دلالة الكثير من الوحدات النّصّيّة، ويسعى الباثُّ بواسطته إلى تحقيق وظيفة اللغة الحجاجيّة المتمثلة في إذعان المتلقي، وتسليمه عبر توجيهه الخطابَ صوب النتيجة المقصودة.

وأمّا المحور الثاني فوسم بـ: "تكرار كلمة" وقد قام هذا الضّرب التّكراريّ على معاودة لفظة معيّنة في وحدة نصيّة ذات حمولات دلالية مختلفة لكنّها مترابطة ومتّسقة بواسطة اللفظة المكرّرة ذات البعد الحجاجيّ، وعلى تكرار لفظة على مستوى النّصّ العام، وستوضح الدراسة دور اللفظة المكرّرة في إخصاب دلالات الخطاب، ومدّ رؤيته الحجاجيّة وتوسيعها، فضلاً عن كشف أبعادها الإيقاعيّة.

وأمّا المحور الثالث فجاء موسوماً بـ: "تكرار أساليب وتراكيب" وفيه بيان لسيطرة تركيب معيّن، أو أسلوب معيّن على الوحدة النّصّيّة، فتتلاحق العبارات بحمولات دلالية متنوعة، لكنها تتضامّ وتترابط بفعل النمط التّكراريّ التركيبي، أو الأسلوبي الذي جاءت وفقه؛ بحيث يغدو هذا التركيب عنصرًا مهيمنًا وموجّهًا لحمولات الوحدة النّصّيّة. ولن يكون القصد مسلطًا على التركيب أو الأسلوب بحدّ ذاته، بل سيتوجّه الاهتمام صوب خواصّه الحجاجيّة التّخاطبيّة. وحتى نتبيّن أثر هذه الألوان التّكراريّة ونجاعتها الإقناعيّة لا بدّ من تجريدها، والبحث في مظاهرها الحجاجيّة، واستجلاء طريقة بنائها وانتظامها داخل مسار حجاجيّ محدّد، وداخل سياق استدلاليّ مخصوص(١).

وانطلاقاً مما سبق، فإنّ الدراسة ستنحو منحى قوامه تحليل وظيفية التّكرار، ومقاصده في خطاب ابن المقفّع، ودوره في تحقيق التأثير في المتلقي، وتوجيه رؤيته للقيم والأخلاق، فضلاً عن إبراز قدرة ابن المقفّع على مراعاة مقام إنتاج الخطاب، وأحوال أشكال إلقاء الخبر بالتّكرار، مستحضرًا المرسَل إليه في كلّ عملية إبلاغيّة تقصد التأثير فيه، ومن ثم تغيير سلوكه، متوسلًا تقنية حجاجيّة ذات مسارات متنوعة، حقّقت حضوراً وظيفيًّا مكثفًا ولافتًا في مدوّنته، وأبعدت التّكرار عن مجرد الإخبار والإبلاغ، وأدخلته في بوتقة التأثير والإقناع، بما يثيره من دلالات الإلحاح، والتّشديد والمبالغة في التأكيد.

(١) حمداوي، **نظريات الحجاج**، ص٦٠.

تكرار عوامل حجاجيّة (النّفي أنموذجًا):

عمد ابن المقفّع في خطابه الذي استثمر فيه تقنية التّكرار إلى معاودة بعض العوامل الحجاجيّة التي كان من أبرزها عامل النّفي الذي شكلّ ملمحًا أسلوبيًّا بارزًا في خطابه، واكتسب طابعًا حجاجيًّا تداوليًّا. ويُعرّف العامل الحجاجيّ بأنّه وحدة لغوية، إذا تم إعمالها في ملفوظ معيّن، أو في وحدة نصيّة، فإنّ ذلك يفضي إلى تحويل الطاقة الحجاجيّة لهذا الملفوظ. والتحويل الذي يُحدثه العامل الحجاجي في المحتوى الدلالي للملفوظ الذي يرد فيه، لا يكون مستمداً من القيم الخبرية التي يضيفها هذا العامل، وإنما يُستمدّ من وظيفته التحويلية الحجاجيّة الخالصة؛ فهو لا يضيف مضموناً خبرياً جديداً، بل إنّ غاية ما يحدثه هو شحن المضمون الخبري القائم، وتحويله؛ ليؤدي وظيفة تتلاءم مع الاستراتيجية الحجاجيّة للمتلفظ[١]؛ فالعوامل الحجاجيّة "عناصر لغوية تنتظمها غاية واحدة، وهي تحقيق الخطاب للإقناع في عملية التواصل[٢] من خلال "تقوية طاقة الملفوظ الحجاجيّة، وذلك بتقليص ما يشوبه من غموض، أو تعدّد في التّأويلات التي يجعلها العامل الحجاجيّ محددة، وذلك بسرعة ربطه بين الحجة والنتيجة؛ فلا يضيع المتقبّل في التأويلات المختلفة، التي لا توصله إلى المقصود من الحدث التلفظيّ"[٣].

وحين يدخل العامل الحجاجيّ على الملفوظ أو النّصّ، فإنّه يكسبه مظاهر حجاجيّة ثلاثة، أو وظائف حجاجيّة ثلاث هي:

أولاً: "القضاء على تعدد الاستلزامات والنتائج؛ وذلك بنقل المتلفظ من التعدد والغموض إلى وحدة النتيجة والمقصد من الملفوظ؛ فلا يضيع بين النتائج التي يؤدي إليها القول الحجة، ولا تتعدد تبعاً لذلك المسالك التأويلية، فيعمد العامل الحجاجي إلى حصرها حتى تقود إلى نتيجة واحدة، وذلك بالانتقال بالملفوظ من الإبلاغيّة إلى الحجاجيّة.

ثانياً: قدْح المواضع وتنشيطها؛ فالموضع يكون هو العمدة في ارتباط "ق١" أي المعطى بالنتيجة أي "ق٢"، وعلاوة على وظيفته التعاقدية هذه بين الحجة والنتيجة، فإنّه يعتبر ضامناً من ضمانات تسلسل الخطاب، وعنصراً من عناصر تناسقه.

---

(١) الراضي، رشيد، **الحجاجيات اللسانية والمنهجية البنيوية**، ضمن كتاب: **الحجاج مفهومه ومجالاته (دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة)**، إشراف حافظ إسماعيل علوي، ط١، عالم الكتب الحديث، الأردن، إربد، ٢٠١٠، ١/٤٣٥-٤٣٧.

(٢) الناجح، عز الدين، **العوامل الحجاجية في اللغة العربية**، ط١، مكتبة علاء، تونس، ٢٠١١، ص٢١.

(٣) المرجع نفسه، ص٣٤.

ثالثاً: تقوية التوجيه نحو النتيجة "ن"؛ وذلك على صعيد ما يسمى بالمربّعات الحجاجيّة، والسّلالم الحجاجيّة، التي يمكن اعتبارها آلية من آليات البرهنة على مقولة التّوجيه الحجاجيّ، وحجاجيّة اللغة"[١].

وقد وقفت الدراسات الحديثة عند العوامل الحجاجيّة، وبيّنت دورها في الإقناع والتأثير، وتوجيه الخطاب، ومنها النّفي بأدواته المختلفة، وأدوات القصر والاستثناء[٢]. ويلفت قارئَ مدونة ابن المقفّع في الأدب الصغير والكبير الحضورُ الواسعُ للنّفي في وحداته النّصّيّة وملفوظاته، ولا سيما النّفي بـ "لا"؛ لذلك كانت دراسة النّفي بوصفه لونًا تكراريًا؛ محاولة لبيان طريقة اشتغاله داخل الخطاب؛ لإدراك المقاصد والغايات التي يطمح الباثّ توجيه المتلقي إليها.

ولما كان الإثبات إيقاعاً للعلاقة بين عمدتي الكلام ومتمّماته باعتبارها موجودة واقعة، فإنّ النّفي ينتزع هذا الوجود والوقوع"[٣]؛ فهو يعمل على تحويل المعنى المثبت في ذهن المتلقي إلى ضدّه المنفيّ، وبما أنّ علماء اللغة يرون أنّ الإثبات أسبق من النّفي، وأنّ إحالة النّفي على الإثبات إحالة نظامية، فإنّ ذلك يكفي لأن ينفي متكلّم ما شيئا، حتى نستدلّ بنفيه على وجود خبر مثبت شكلّ النّفي ردًّا عليه[٤].

وبما أنّ هناك كلامًا مثبتًا وكلامًا منفيًا، فإنّ ذلك يعني وجود متكلّمين اثنين، وليس بالضرورة أن يكونا شخصين مختلفين، بل يعني وجود كلامين مسندين إلى متكلّمين في عمليتي قول مختلفتين، مع إمكان أن يكون المتكلّم الأول هو نفسه المتكلّم الثاني؛ أي أن ينجز كلا الكلامين متكلّم واحد يكذّب ما قاله سابقًا[٥].

ويترشّح من هذا أنّ النّفي يحمل دلالة على تعدّد الأصوات حول قضية واحدة من قائليْن مختلفيْن، أو من صوتيْن لكائن واحد؛ فجلّ الأقوال المنفية تبرزُ عمليةُ قولها على أنّها صدام بين موقفين متعاندين، أحدهما موجب والآخر نافٍ، أو هو مواجهة حواريّة بين عمليتي قول ضمنيّة أو صريحة؛

(١) الناجح، **العوامل الحجاجية**، ص٣٥. وانظر: الناجح، **العامل الحجاجيّ والموضع، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته**، ١/٢٨٨-٣١٠.

(٢) انظر: العزاوي، أبو بكر، **الحجاج في اللغة**، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر، لبنان، ٢٠٠٩، الناجح، **العوامل الحجاجية**، الشامي، ألطاف، **العوامل الحجاجيّة في شعر البردوني (النّفي أنموذجًا)**، مجلة كلّية العلوم الإسلامية، جامعة بغداد، العدد: ٤٣، الجزء الأول، ٢٠١٥.

(٣) المبخوت، شكري، **إنشاء النّفي وشروطه النحويّة الدلاليّة**، مركز النشر الجامعي، تونس، ٢٠٠٦، ص ١٩٨.

(٤) المرجع نفسه، ص: ٤١-٥٥.

(٥) المرجع نفسه، ص: ٨٣.

ممّا يضفي على النّفي طابعًا حواريًا، وهذه الحوارية تعزّز من طاقة النّفي الحجاجيّة الإقناعيّة، وتقوّيها[١].

ويرى شكري المبخوت " أنّ اقتضاء النّفي للإثبات، واستلزامه لجواب عنه مثبت، هو الذي يجعل من النّفي تركيبًا أساسيًا أثرى من الإثبات، وأثرى تعقيدًا، وهذا هو الذي يرشّح النّفي لأداء وظائف خطابية أساسية في المحاجّة باعتبارها احتمالات في الربط النّصّيّ، والتعبير عن تعارض الاعتقادات"[٢].

وللنّفي ثلاثة تصنيفات هي:

أ- النّفي الميتالغوي: وهو نفي يناقض اللفظ نفسه الذي أُخرج به كلامٌ فعليٌّ قد قيل، فهو قول منفيّ يهاجم متكلّمًا قال المقابِل الموجِب.

ب- النّفي الجدالي: وهو النّفي الذي يعارض به المتكلّم رأيًا معاكسًا لرأيه، صاغه المخاطب صياغة إثباتيّة، ولكن قد لا يكون المخاطب المثبت موجودا فعلا، وإنما يبرِز المتكلّمُ النّافي صوتَه في ضرب من المسرحة للقول، وخاصّيّة هذا النّفي أنه يوافق جلّ الأقوال المنفية.

ج- النّفي الوصفيّ: وهو النّفي الذي يكون تمثيلا لحالة الأشياء في الكون، دون أن يقدمه قائله على أنه يعارض خطابًا آخر[٣]. فكيف وظّف خطاب ابن المقفّع النّفي؛ ليحقّق أبعادًا تداوليّة حجاجيّة؟ قال ابن المقفّع: " ومَنْ لا إخوانَ له فلا أهلَ له "، ومَنْ لا أولادَ له فلا ذكرَ له، ومن لا عقلَ له فلا دنيا له ولا آخرة، من لا مالَ له، فلا شيء له "[٤].

وقال: "الحازمُ لا يأمن عدوّه على حال؛ إن كان بعيدًا لم يأمنْ مغاورته، وإن كان قريبًا لم يأمنْ مواثبته، وإن كان منكشفًا لم يأمنْ استطراده وكمينه، وإن رآه وحيدًا لم يأمنْ مكره"[٥].

(١) المرجع السابق، ص: ٢٠٦.

(٢) المرجع السابق ، ص: ٢٠٦.

(٣) المرجع السابق ، ص: ٢٠٦.

(٤) ابن المقفّع، عبدالله، (ت ١٤٢هـ/ ٧٥٩م)، **الأدب الصغير والأدب الكبير**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٧، ص٤٤.

(٥) المصدر السابق ، ص: ٤١

وقال في حقّ أولي الأمر والسلطان على العاقل من الرعية: "لا يبطرُ إذا أكرموه، ولا يجترئُ عليهم إذا قرّبوه، ولا يطغى إذا سلّطوه، ولا يلحفُ إذا سألهم، ولا يعتزُّ عليهم إذا رضوا عنه، ولا يتغيّر لهم إذا سخطوا عليه ..."(١).

يبرز في هذه الوحدات النّصّيّة التعاضدُ بين مظهرين حجاجيين في العربية: الشّرط والنّفي، وهذا التعاضد يرفد النّصّ بمزيد من الطاقة الحجاجيّة للوحاته التوجيهية. وقد راوح ابن المقفّع في توظيف النّفي بين طرفيّ خطابه الشّرطي؛ ففي اللوحة الأولى أدخل "لا" النافية للجنس على طرفي الجملة الشّرطية مكررا أداة الشّرط " مَن "في صدر كلّ جملة؛ مما أدّى إلى سيطرة النّفي، وتوجيهه لخطاب الشّرط رابطاً نفياً بنفي، وموصلاً فكرته إلى المتلقي؛ ليعاود النظر في ثوابت قارّة في ذهنه، ويمعن فكره في قيمة ما يمكن أن يمتلكه إنسان ويحظى بمسرّاته، ويحرم منه الكثيرون؛ كالإخوة والأولاد والعقل والمال.

وغاية ابن المقفّع توجيه الإنسان؛ ليدرك ما يمكن أن يخسره لو فقد هذه الممتلكات، وأصبح خالي الوفاض منها؛ ليزداد وعياً بأهميتها، وليحسن التعامل معها والحفاظ عليها. وتكرار البنية ذاتها حمل معه تنويعات دلالية عديدة توجّه المتلقي نحو الحرص على الإفادة من النّفي؛ لحصول الإثبات أي امتلاك ما نفي أولاً؛ ليمتلك ما نفي ثانياً. وهذا التلازم والاقتضاء في ذاته حجاجي؛ إذ يعدّ الشّرط من آليّات الاستدلال والبرهنة، لكنّ النّفي عزّز من حجاجيتّه، وأمدّه بطاقة إقناعيّة جعلته مسيّرًا للخطاب وموجّهًا. ومجيء الخطاب الشّرطي على أصله، وعلى البنية التركيبية ذاتها جعل من طرفي خطاب الشّرط على قدر واحد من العناية والأهمية، وعزّز كلَّ ما سبق الإيقاعُ الذي أحدثه التّكرار، وجذب الأسماع إليه.

أما اللوحة الثانية، فقد وظّف الشّرط والنّفي لوصف الحالات التي تؤطّر لعلاقة الحازم بعدوّه وتحكمها؛ وقد راوح الخطاب فيها بين الإثبات في جملة فعل الشّرط، والنّفي في جوابه. ونرى في هذا المقام أنّ ابن المقفّع قد قصد إلى تقوية جمل جواب الشّرط، وتمكينها بالنّفي، وبمعاودة الفعل "يأمن" ليلفت انتباه الحازم إلى ما قد يصدر عن العدوّ في كلّ أوضاعه؛ ليكون في مأمن منه وعلى حذر. ومع أنّ فعل الشّرط قد قدّم، فإنّ الجواب كان هو العنصر الرئيس والمركزي في الخطاب؛ بسبب النّفي الذي وجّه الأضواء إليه، وحثّ المتلقي على التلفّت صوبه، فضلاً عن معاودة الفعل المنفيّ نفسه؛ الأمر الذي يعزّز من إذعان المتلقي للخطاب، ويعمّق من فهمه للعلاقة مع الآخر العدو؛ تلك العلاقة

(١) المصدر السابق، ص: ٣٠.

التي من غير الممكن أن يسودها الأمان، الذي إن فقد من أيّ علاقة حوّلها إلى علاقة يغلّفها التخوّف والتوجّس، وعدم الثقة، والحذر الدائم، وهذه من سمات العلاقة مع العدوّ.

أما اللوحة الثالثة، فقد شيّدت على الانزياح في موقع طرفي الشّرط؛ قدمت بموجبه جملة جواب الشّرط المصدرة بالنّفي على فعله، وقد حملت هذه اللوحة التّكراريّة عدة عناصر قوّت من فعلها الحجاجي، ومكّنت من أثرها في التغيير؛ فالانزياح لم يكن تصرّفًا عشوائيًّا أو اعتباطيًّا، بل هو حركة فاعلة تفيد انتقال الكلام، وتحوّله مما كان عليه في مألوف المتلقي، وتصّوره إلى انتظام جديد غايته تنبيه إدراك المتلقي، وتوجيهه نحو وجهة معيّنة من الخطاب، تحمل بؤرته ودلالته الأولى التي يقصد إليها الخطاب، الذي كانت غايته الأولى والمركزية تسليط الضوء على فعل الرغبة نحو التقرب من السّلطان، وتنبيه من يتعامل مع صاحب السلطة إلى تجنّب ردود أفعال تعود عليهم بالضّرر إذا اتّبعوها مع السلطان؛ لذلك فأساس الخطاب ليس فعل السلطان، بل فعل الرعية نحو السلطان.

وفي هذا إدراك من ابن المقفّع للنفس الإنسانية التي تظن أنّ حسنَ معاملة السلطان لها يوفر لها حَصَانة وَمَنَعة، وهي لا تدري أنها مهما تقرّبت منه، ونالت من عطاياه فإن المسافة الفاصلة بينهما ما تزال قائمة ولا تجسر أبدا، وفي هذا تحذير وإنذار؛ لذا قدّم ابن المقفّع جواب الشّرط؛ لأنّ فيه غاية الخطاب ومقصده، فضلاً عن ارتباط جواب الشّرط بالنّفي فكان التقديم أولى ليبرز أثر النّفي، ويكون للشرط فاعلية وتأثير أكثر وضوحاً وجلاءً. ولو جاءت الجمل على أصلها الشّرطي لما كانت حمولاتها الحجاجيّة فاعلة ومؤثرة؛ فخطاب ابن المقفّع يعكس صورة مقامه؛ فأخرجه على هذا النحو، وكيّفه على هيئة تركيبيّة تدفع بالوحدة النّصّية لتكون أعمق في بيان مقاصده وغاياته.

وعليه فإنّ مقاصد تثوي وراء عملية انتقاء المفردات وترتيبها وتأليفها، وهذه العملية لا تحكمها مقصدية الإفهام وحدها، وإنما تحكمها غاية خلق التشويق في نفس المخاطب، فطريقة تأليف الكلام تجعل المخاطَب يتأثر، وتستفزّ انفعالاته ليتجاوب مع ما يدفعه إليه الخطاب؛ لذا لجأ خطاب ابن المقفّع إلى التقديم والتأخير؛ ليتمكّن من جذب المتلقي والتأثير فيه؛ لأنّ تفاعل المخاطب مع النصّ، وتحريكه للإنصات والتجاوب الفعّال يتحققان عبر خلق تشويق إلى بقيته [1].

(١) الكدالي، عبدالله، **تداولية المقام (بحث في الشروط المقامية في التراث النقدي والبلاغي)**، ط١، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠١٧، ص: ١٠٩-١١١.

واستثمر خطاب ابن المقفّع أسلوب النّفي بوصفه عاملًا حجاجيًّا في ترسيخ قيم إنسانية، تصبو لخلق شخصية ذات أبعاد قيمية تقترب من المثالية والأنموذج فقال: "وإنّي مخبرك عن صاحب لي كان من أعظم الناس في عيني. وكان رأسَ ما أعظَمَه في عيني صغرُ الدنيا في عينه:

كان خارجًا من سلطان بطنه؛ فلا يتشهّى ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد. وكان خارجًا من سلطان فرجه؛ فلا يدعو إليه ريبة، ولا يستخف له رأيًا ولا بدنًا. وكان خارجًا من سلطان لسانه؛ فلا يقول ما لا يعلم، ولا ينازع في ما يعلم، وكان خارجًا من سلطان الجهالة؛ فلا يقدم أبدا إلاّ على ثقة بمنفعة"(١).

وقال في وصف العاقل: "يسلم العاقل من عظام الذنوب بالقناعة ومحاسبة النفس؛ لا تجدُ العاقلَ يحدّث من يخاف تكذيبه، ولا يسألُ من يخاف منعه، ولا يعدُ بما لا يجد إنجازه، ولا يرجو ما يعنّف برجائه، ولا يقدمُ على من يخاف العجز عنه "(٢)

ولو تدبّرنا التقنيات الحجاجيّة في اللوحة التّكراريّة الأولى، فإنّنا نلحظ أنها تنطلق من أسلوب الاجمال والتفصيل الذي شكلّ مهيمنًا أسلوبيًّا عليها؛ لتحقيق مقصد الخطاب من التوضيح والإبانة والتشويق لما جاء مجملًا(٣). وقد بنى الخطاب تفصيله وإجماله وفق أساليب مكّنت من طاقته الحجاجيّة، وحمولاته الدلالية المتنوعة المتعددة؛ لترسم في نهاية الخطاب لوحة تتناسل معانيها بدقة وإحكام وفق إيقاع تكراري جاذب موجهة المتلقي نحو جملة من القيم المختلفة، لكنّها تجتمع في دلالة عامة قوامها تجرّد الإنسان العاقل من كلّ ما قد يسيطر عليه، ويوجّه أفعاله وجهة خاطئة، ويحوّله إلى إنسان مستعبد لا غاية له إلا إرضاء شهواته المختلفة؛ الأمر الذي يقوده إلى المهالك.

وقد عُدّ أسلوب الإجمال والتفصيل أو التقسيم آليةً حجاجيّة، غايتها "البرهنة على وجود المجموع، ومن ثمّة تقوية الحضور؛ بمعنى إشعار الغير بوجود الشيء موضوع التقسيم من خلال التصريح بوجود أجزائه"(٤). أما الإجمال ففي قوله عن صديقه: " .. صِغَر الدنيا في عينه "، هذا الوصف المجمل لا بدّ وأن يثير تساؤلًا في نفس المتلقي: وكيف يكون ذلك أي كيف تصغر الدنيا في عيني مع كلّ مغرياتها وشهواتها؟ فيحمل التفصيل الإجابة، ولكنّه تفصيل حجاجيّ من وجهين: الأول في التّكرار

(١) ابن المقفّع، **الأدب الصغير والكبير**، ص: ١٠٣.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٣٧-٣٨.

(٣) انظر: أبو خضر، هاني، **أسلوب التفصيل بعد الإجمال وأغراضه في القرآن الكريم**، رسالة ماجستير، جامعة نابلس، فلسطين، ٢٠١٢.

(٤) صولة، عبدالله، **الحجاج أطره ومجالاته من خلال مصنف في الحجاج/ الخطابة الجديدة**، ضمن كتاب: **الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم**، جامعة منوبة، تونس، ٢٠١٠، ص: ٣٣١.

والمعاودة لكان واسمها وخبرها، والثاني للمجاز الذي جاءت عليه متعلقات خبر كان "خارجاً" في قوله: من سلطان بطنه، وفرجه، ... " فاستعمل التّكرار؛ لإبراز شدّة حضور الفكرة المقصود إيصالها والتأثير بها.

وقد سمح التّكرار الذي شكلّ لازمة في النّصّ بتسليط الضوء على لفظة "سلطان" ذات القيمة الدلالية والبلاغية في آن؛ ففي اختيارها " قيمة حجاجيّة، تتعدّى فكرة إحداث التنغيم والإيقاع، الرغم من أهمية كلّ منهما في لفت انتباه المتلقي.

ولكنّ الخطاب الحجاجي لما كان مرتبطاً دائماً بالمقام الذي يقال فيه إنما يعمد إلى استخدام هذه الكلمة دون مرادفها في اللغة؛ لكونها أنسب منه في ذلك المقام"[(١)]، فهو يرمي إلى تحقيق المزيد من التأثير في ذهن المتلقين على "أساس أنّ الكلمة المختارة أعلقُ بعالم خطابهم، وأمضى أثراً فيه؛ بما لها من زوائد معنوية جاءتها من اللغة، أو من الاستعمال، أو منهما معاً"[(٢)]؛ فكان بإمكانه أن يقول: سيطرة، غلبة، تغلُّب استقواء إلا أنّه اختار "سلطان؛" لما لها في وجدان المتلقي من دلالات القوة والسيطرة، ولم يقف عند هذا بل إنه غيّر في حمولة اللفظة الدلالية بواسطة الإضافة التي أسبغت عليها ظلالاً بلاغية مجازية؛ الأمر الذي قوّى من حمولتها الحجاجيّة؛ لما للمجاز من دور في التأثير العقلي والذهني عند المتلقي، بل والتأثير النفسيّ والانفعاليّ،[(٣)] فهذه الاستعارات المتلاحقة قد وسّعت دائرة القول، ونوّعت دلالاته، وفتحت أمام المتلقي آفاق أوسع وأشمل في الرؤية والتصور.

ولم يتوقف خطاب ابن المقفّع عند حدّ التفصيل الأول الذي حملته كان واسمها وخبرها، بل رأى أنّ هذا التفصيل ينطوي على إجمال يستدعي تفصيلاً آخر، وكأنّه أدرك أنّ المتلقي لا بدّ وأن يسأل عن ماهية التّحرّر من سلطان "المضاف إليه"، فاستوفى الخطاب بتفصيل بني على النّفي بـــ "لا"، وقد وقع النّفي على أفعال مضارعة وجّهت المتلقي نحو منظومة من الأفعال والسلوكات الإيجابية، التي توارت خلف النّفي الذي يهيمن على بقية الخطاب الوصفي لصديق ابن المقفّع، إلى درجة أنّ المتلقي يجد نفسه أمام صورة مثالية للصديق المتصوَّر والمثالي فقال فيه: " وكان لا يشكو وجعًا إلا إلى من يرجو عنده البرء، وكان لا يستشير صاحبًا إلا من يرجو عنده النّصّيحة، وكان لا يتبرّم، ولا يتسخّط، ولا يتشهّى ولا يتشكّى،

(١) صولة، **الحجاج، أطره ومجالاته**، ص: ٣٢٠.

(٢) صولة، **الحجاج في القرآن الكريم، من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبية**، ط٢، دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٧، ص: ٧٣-٧٤.

(٣) المودن، حسن، **بلاغة الخطاب الإقناعي (نحو تصور لبلاغة الخطاب)**، ط١، دار كنوز المعرفة، الأردن، ٢٠١٤، ص: ٢٤٦.

وكان لا ينقم على الوليّ، ولا يغفل عن العدو، ولا يخصّ نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته"[١].

وقد أضفى النّفي الواقع على بنية الفعل المضارعة بعدًا إيقاعيًا، تسوده الحركة والاستمرارية التي تثير في المتلقي الرغبة نحو البحث عن الصورة الخلفية القابعة وراء هذه المنفيّات الدلالية؛ ليصل إلى ثوابت أخلاقية وجّهه الخطاب نحوها؛ قصد اتّباعها في حياته قدر الإمكان، وقصد تشكيل نماذج يقودها العقل، ويتحكّم بسلوكها. وبالرغم من هيمنة النّفي على الوحدة النّصّيّة حين فصّل الإجمال وبيّنه إلا أن النّفي لم يشكلّ افتتاحية النّصّ، بل شكلّها الإثبات الذي حمل الإجمال، مبنيًّا من "كان" واسمها وخبرها؛ لذا رسّخ الإثبات رؤية النّصّ، وأثار أسئلة عند المتلقي، وكأن الإثبات بإجماله لم يفِ غرض الخطاب ومبتغاه، وما زال المتلقي يتوق إلى المزيد؛ ليعرف هذا الصديق المثال أو المرتجى أكثر، فحمل النّفيُ الشرحَ والتّفصيل راسماً لوحة واضحة تستثير المتلقي، وتحثّه على التفكّر في نفسه، وفي حال منظومته القيميّة. وهكذا هيّأ الخطاب للنّفي بالإثبات والمجاز والمعاودة؛ ليبرز فعله وأثره في المتلقي. وقد أدرك ابن المقفّع أنّ صاحبه المثالي قد لا يكون موجوداً فعلاً؛ لذلك قال مخاطباً متلقيه: " فعليك بهذه الأخلاق إن أطقت، ولن تطيق، ولكنّ أخذَ القليل خيرٌ من تركِ الجميع "[٢].

أما اللوحة الثانية فهي وصف للعاقل، ومنذ بداية خطاب ابن المقفّع كان العاقل محور عنايته واهتمامه، وقد بدأ حديثه عن العاقل مثبتًا ومجملًا؛ ليستعدّ المتلقي لاستقبال التفصيل بالنّفي، وحمولاته الدلالية الوصفية المتنوعة في قوله: " يسلم العاقل "؛ احتضنت هذه الافتتاحية فكرة مجملة استدعت تفصيلاً يوضّحها سلوكاً على أرض الواقع في تعامل العاقل، الذي يريد تجنّب "عظام الذنوب" مع غيره من أصناف البشر، آخذًا بعين الاعتبار أنّ الإنسان لا يعيش وحيدًا، ولا يستطيع أن يحيا من غير التواصل مع الآخر؛ لذا جاء التفصيل واضعًا الأسس التي ينطلق منها العاقل في التعامل مع "مَن.. و "مَا" التي حدّدها الخطاب بالاسم الموصول، الذي وضّحها وبيّنها بمتعلقاته العديدة؛ فالحياة تضع الإنسان في مواجهة الآخر، وأمام مفاهيم فكرية ذات اختلاف وتناقض وتنوع، والعاقل مَن يحسن الاختيار فيما بينها. وقد فصَّل الإجمال بتكرار جمل منفية بالعامل الحجاجيّ "لا" الذي وقع نفيه على خمس من الجمل الفعلية، التي حريّ بالعاقل النأي بنفسه عن إتيانها. وإذا ما قيس النّفي بالإثبات في هذه اللوحة الوصفية لتجلّى الفارق واضحًا وكبيرًا؛ إذ إنّ في اختيار ابن المقفّع النّفي لرسم صورة

(١) ابن المقفّع، **الأدب الصغير والكبير**، ص: ١٠٣.

(٢) المصدر نفسه، ص: ١٠٣.

للعاقل ملمحًا أسلوبيًا؛ لما للنفي من قدرة، وطاقة حجاجيّة تقوّي من إقناع المتلقي، وتوجيهه نحو الإثبات الثاوي خلفه؛ ليصل إليه المتلقي بعد حوار مع نفسه، أو مع آخر.

ووظّف ابن المقفّع النّفي تفسيرا للإثبات؛ ليكون الخطاب أكثر تأثيرًا، فقال: "... فالرأي والأدب زوج؛ لا يكمل الرأي بغير أدب، ولا يكمل الأدب إلا بالرأي، والأعوان والفرصة زوج؛ لا ينفع الأعوان إلا عند الفرصة، ولا تتمّ الفرصة إلا بحضور الأعوان"(١).

لم يكتف الخطاب في الوحدة النّصّيّة بما يحمله التركيب الإسمي المثبت، الذي يرسّخ العلاقة بين (الرأي والأدب) و (الفرصة والأعوان)، ويثبتها بواسطة الدّالّ (زوج)؛ وهو دالٌ متصوّرٌ في ذهن المتلقي وواقعه؛ وكأنّه أدرك أنه في هذا المقام ما زال قاصرًا عن تأدية غرضه الحجاجيّ، فأتبعه بما يدعّم فعله، ويعزّز أثره في ذهن المتلقي، متوسّلا بأسلوب الحصر (بلا النافية وإلا)؛ ليمنع تسلّل أيّ احتمالات أخر، قد يسمح بها التركيب الإسميّ المثبت، وعزّز النّفي الواقع على الفعل المضارع ذي الدلالة المستمرة الحدوث بتكرار أسلوب الحصر، مع تغيير في مواقع الدوال بعد النّفي، وبعد إلاّ؛ لتحتلّ بؤرة الحصر ومركزيته في كلّ موقع؛ لإحداث مزيد من شدّ انتباه المتلقي. وفي إتيان الدلالة بواسطة العوامل الحجاجيّة؛ النّفي وإلاّ توظيف لقانون الأنفع في الحجاج؛ أي أنّه "أنفع في إقامة الحجة من الملفوظ العاريّ عن تلك العوامل، وذلك أنّ النتيجة التي يريد إيصال المخاطب إليها مضمونة الوصل"(٢). وعليه فالنّفي والحصر أجدى حجاجيًا، وأنفع من التركيب الإسمي المثبت في هذا المقام.

وقد حققت هذه الوحدة النّصّيّة تناغمًا وانسجامًا بين الإثبات والنّفي، الذي أثبت ورسّخ حمولات الإثبات، فلا تناقض في معطيات الخطاب الحجاجيَّ؛ لأنّه "تخطيط أو رسم بيانيٌ لعالم مصغر، عالم ليقنع ويؤثر، ويفعل في المتلقي ينبغي أن يسوده التناغم، ويحكمه الانسجام؛ فلا تخالِف نتائجُه مقدماتِه، ولا تناقِض أوائلُه أواخرَه، ولا تعارِض دقائقُه عموميّاتِه"(٣).

(١) المصدر السابق، ص: ٣٧.

(٢) صولة، عبدالله، **البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة أو (الحجاج)**. ضمن كتاب: **الحجاج مفهومه ومجالاته**، ٣٥/١، وانظر: محمود طلحة، القيمة الحجاجيّة لأسلوب القصر في اللغة العربيّة، **مجلة الخطاب**، الجزائر، عدد٣، ٢٠٠٨.

(٣) الدريدي، سامية، **الحجاج في الشعر العربي من الجاهلية إلى القرن الثاني الهجري (بنيته وأساليبه)**، ط١، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠٠٨، ص: ٣٧.

ووظّف خطاب ابن المقفّع النّفي في توجيه المخاطب نحو الفصل بين منظومة من القيم، التي قد يرى الناس أن اجتماعها لا ضيرَ فيه فقال: "لا يوجد الفخورُ محمودًا، ولا الغضوبُ مسرورًا، ولا الحرُّ حريصًا، ولا الكريمُ حسودًا، ولا الشرهُ غنيًّا، ولا الملولُ ذا إخوان "(١)، وقال: " لا يُذكر الفاجرُ في العقلاء، ولا الكذوبُ في الأعفّاء، ولا الخذولُ في الكرماء، ولا الكفورُ بشيء من الخير "(٢).

وقال: "لا يطمعنّ ذو الكبر في حسن الثناء، ولا الخبّ في كثرة الصديق، ولا السّيءُ الأدب في الشرف، ولا الشّحيحُ في المحمدة، ولا الحريصُ في الإخوان، ولا الملكُ المعجبُ بثبات الملك"(٣).

جاءت الأوصاف والقيم على هيئة صفات مشبهة متنوعة، ترمي إلى رسم صورة متناسقة للقيم الإنسانية في هيئات وألوان عدة، يحذّر فيها ابن المقفّع من فقدان هذا التناسق والترابط بينها؛ ولعلّ ذلك عائد إلى ما يراه ابن المقفّع في مجتمعه من انفصال وانفصام سلوكي وقيمي؛ لذلك توجه إلى المتلقي بهذا الأسلوب موظّفًا النّفي أولًا، ومكرّرًا له ثانيًا، ومغيّرًا في حمولته الدلالية ثالثًا، محافظًا على رابط دلالي عامّ في أجزاء اللوحة.

وما ساعد اللوحات التّكراريّة على النهوض بوظيفتها الحجاجيّة بنجاعة الإيجاز الذي اتسمت به الجمل المكرّرة؛ فلا حشوَ ولا تزيّد في المفردات، بل هو كلام قليل يتضمّن معاني واسعة ممتدة؛ "فحجاج موجز، حسن الترابط أقرب إلى القبول، وألصق بالذاكرة، وأقدر على الإثارة من ثرثرة مطوّلة"(٤)؛ وهذا أبعد في الحجاج وأعمق؛ إذ فيه شدّ لانتباه المتلقي لمتابعة التراكم الدلاليّ، الذي يأخذه إلى آفاق أرحب، أو رؤى أعمق، مما لو جاءت العبارات فرادى؛ الأمر الذي يزيد من انتباه المتلقي فلا يتشتّت، بل يبقى محافظاً على التنبّه للنفي والقيم التي وقعت عليه؛ فهو بين قائمتين من القيم والصفات الإيجابية والسّلبية، وعليه أن يمعن النظر في الصورة التي يدعوه الخطاب إلى تمثّلها في حياته.

ونلاحظ أن ابن المقفّع قد صدّر العبارات المنفيّة بالقيم السّلبية غالباً؛ جذباً لانتباه المتلقي ليدرك عواقبها؛ ولينفّر منها، لكنّه حين يتوجه صوب القيم الأخرى الإيجابية، فلا بد أنه سيرى فيها صورة مشرقة محبّبة؛ الأمر الذي يقنعه بترك الأخلاق السيئة؛ حتى لا يخسر ما هو إيجابيّ وحسن؛ ليدرك المتلقي أنّ سلوكه وصفاته، لا تنفصل عراها بل كلّ منها يؤثر ويتأثر، ولا يجتمع سيئها وحسنها في

(١) ابن المقفّع، **الأدب الصغير والكبير**، ص: ٤٠.
(٢) المصدر نفسه، ص:٣٦.
(٣) المصدر نفسه، ص: ٤٢.
(٤) الدريدي، **الحجاج في الشعر**، ص: ٣٧.

آن؛ قصد بناء شخصيّة سوية في كلّ أبعادها القيمية والسلوكية. وقال في السياق ذاته: "لا ينفع العقلُ بغير ورع، ولا الحفظُ بغير عقل، ولا شدةُ البطش بغير شدة القلب، ولا الحبُّ بغير أدب، ولا السّرورُ بغير أمن، ولا الغنى بغير جود، ولا المروءةُ بغير تواضع، ولا الخفضُ بغير كفاية، ولا الاجتهادُ بغير توفيق"(١).

تآزر في هذه اللوحة نوعان من التّكرار أفضيا إلى إبراز حجاجيّة الدلالات ومراميها؛ فقد ابتدأت اللوحة بالنّفي المتكرّر، وتوسّطت بتكرار الدال "غير"؛ الأمر الذي عزّز من توظيف العامل الحجاجي "لا" واللفظ المكرر "غير"، وتوزّع الحجاج والتأثير بينهما لإيصال رؤية ابن المقفّع بضرورة تحقيق التلازم القيمي؛ ليكون النفع والرضى عمّا هو في يد الإنسان، وإلا ضاعت مكتسباته، وأصبحت قبض الريح لعدم اكتمالها بقيم وظروف أخر. وأدى النّفي وتكرار "غير" إلى تلاحم أجزاء النّصّ التّكراريّ وترابطه بنائيًا ودلاليّا؛ مما أحدث انسجاماً في اللوحة، وانعداماً للتنافر بين مكوناتها؛ الأمر الذي ينعكس أثره على المتلقي، وعلى متابعته، وملاحقته للمضامين مدفوعًا بأثر التّكرار. وحضور النّفي في هذه الأمثلة يغيب وراءه انتقاد ابن المقفّع للمجتمع الذي يأخذ بظاهر الأشياء دون سبرٍ لغورها، وبحث في كنهها؛ ليتبنى حكمًا عادلًا وسليمًا من العَورَ والنقص.

ويصدر ابن المقفّع في هذ الأبنية المكرّرة عن رؤية وآراء يتبناها في الحياة وفي قيمها، وفي كيفيّة اكتمال القيم الإنسانية ونقصانها، إذا ما صاحبها قيم أخرى تعززها، وتعمّق من أثرها، وكأنّ ابن المقفّع يعرض ما هو شائع ومتقبل بين الناس من ثوابت قيمية وينتقدها، فعمل على تحذيرهم من أنّ النّقص سيلحق بهذه المكتسبات، إذا لم يرافقها ما يكمّلها ويجمّلها؛ فصاحب الرأي هو قاصر الرأي، إذا لم تصدر آراؤه عن تجربة، والسّعادة لا تكون إلا بأمن المجتمع، والقرابات لا يعتدّ بها إذا لم يقم بنيانها على المودة والتراحم؛ أي أنّ الناس قد يتقاربون دون صلة قربى؛ لأنّ ما يجمعهم أقوى وأشد، وهو المودّة وأواصر المحبّة الإنسانية.

وهكذا فإن "المتكلّم حين يوجّه ملفوظه حجاجيًّا، فإنّه يفعل ذلك عبر وسم هذا الملفوظ وسمًا حجاجيًّا، ويكون هذا الوسم الحجاجيّ بتضمين الملفوظ مجموعة من العلامات والإشارات، التي تحدّد كيف ينبغي تأويله، وأيّ معنى يجب إسناده إليه، وتعتبر العوامل والروابط من ضمن أهمّ المواضع التي ينعكس فيها هذا التوجيه، بل إنّ سائر المظاهر الحجاجيّة الأخرى ترد في الغالب متفاعلةً مع الروابط والعوامل"(٢).

(١) ابن المقفّع، **الأدب الصغير والكبير**، ص: ٣٥.

(٢) الراضي، **الحجاجيّات اللسانيّة والمنهجيّة البنيويّة**، ٤٣٥/١.

تكرار أساليب وتراكيب:

لوّن ابن المقفّع في أشكال التّكرار ومساراته؛ فعمد إلى تكرار بنى تركيبيّة وأسلوبية، لا رابط يجمعها إلا ورودها وفق منوال تركيبيّ واحد متتابع مكرّر، أو أنّ دلالة عامة تشدّها، وتجمع ما تشتّت من حمولاتها الدلالية الخاصّة فتعمّق أواصر ارتباطها، وترسم لوحة كثيرة التفاصيل، ممتدة في رؤيتها. ونبدأ ببنية الجملة الإسمية المثبتة فقال: " العجبُ آفة العقل، ...، واللجاجةُ قعودُ الهوى، والبخلُ لقاحُ الحرص، والمراءُ فسادُ اللسان، والحميّةُ سببُ الجهل، والأنفُ توأمُ السّفه، والمنافسةُ أختُ العداوة "(١).

فكما استثمر الخطاب النّفي لدحض الإثبات، ولنحت صورة إيجابية للمتلقي، فقد اتكلّ على الإثبات بالجملة الإسمية مكررة البناء مجددّة الدّلالة. ولو أنعمنا النظر في هذه الإعادة للتركيب المثبت من الجملة الإسمية، فسنرى أنّها تقوم على صفة سلبيّة معرفة بـ "أل التعريف"، ينتج عنها صفة سلبيّة أخرى معرّفة بالإضافة، التي خصّصتها وحدّدت دلالتها. وعلى خصوصية دلالة كلّ تركيب إلا أن جامع السلبيّة للمبتدأ والخبر شكّل رابطاً عاماً لها؛ فابن المقفّع قدم في هذه المعاودات التركيبيّة دعوات قيمية ترى أن فعل السوء لا يتوقف، بل إنّه سبب في توالد مساوئ أخر؛ تفضي إلى خلخلة في نظام المجتمع وقيمه. ولو جاءت هذه الجمل منفردة، فأغلب الظن أنّ وقعها على المتلقي لن يكون كوقع اجتماعها، وتكرار بنائها لتشكلّ منظومة قيمية واحدة، فضلاً عن الإيجاز الذي جاءت عليه؛ إذ يتيح للمتلقي انشغالاً ايجابياً بحمولات الملفوظات الدلاليّة؛ فهي تراكيب موحدة ذات مدلولات متسعة شاملة، تمتدّ إلى مناحٍ قيمية متعدّدة في الحياة؛ وهذا يخلق عند المتلقي تفكراً في مآلاتها وتوابعها، وهذا الانشغال والحوار مع الخطاب له أثره الإيجابي في الاقتناع والقبول.

وفي هذا المقام لعل من اللازم ذكره أن عناية خطاب ابن المقفّع في توظيف النّفي لم ينتج عنه إهمال للتراكيب، التي تفيد ثبوت الدلالة ورسوخها؛ فقد وظّف الجملة الاسمية المثبتة للإفادة بها على ثبات القيم التي يدعو إليها، أو يحذّر من ثبات إتيانها؛ أي أنّه يختار التقنية الحجاجيّة التي تتساوق والمقام القوليّ؛ لتعمق من أثرها في المتلقي، ولتحقّق مقاصدها المبتغاة في ذلك المقام المفترض أو المتخيّل. وقال في الصبر موظّفاً النواسخ:

"ولكنّ الصّبر الممدوح أن يكون للنفس غلوبًا، وللأمور محتملًا، وفي الضّراء متحمّلًا، ولنفسه عند الرأي والحفاظ مرتبطًا، وللحزم مؤثرًا، وللهوى تاركًا، وللمشقّة التي يرجو عاقبتها مستخفًّا، وعلى مجاهدة الأهواء والشّهوات مواظبًا، ولبصيرته بعزمه منفذًا "(٢).

(١) ابن المقفّع، **الأدب الصغير والكبير**، ص: ٢٨.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٨٦-٨٧.

في هذه الوحدة النّصّيّة نوع من الإكثار التّكراريّ فضاؤه الجملة الاسمية، أو مجاله التراكيب، تتعدد دلالياً، ولكنّها تشترك في الوظيفة النحوية اشتراكها في المنوال المتكرر، وهنا قامت البنى المتكررة بدور المسند الذي جاء خبراً منصوبًا للفعل النّاقص، وحمل تكراراً آخر، وهو مجيء البنى على هيئة اسم الفاعل والصفة المشبهة؛ الأمر الذي بثّ من تكرارها إيقاعاً موسيقياً، تتكرر فيه ذات الحركات: الكسرة يليها تنوين الفتح؛ وهذا أفضى إلى جوّ نغميّ ممتع يستجلب سمع المتلقي، فضلاً عن القيمة الدلالية المعنوية التي تحملها التراكيب ذات البناء المتكرر. وحتى يحقّق هذا التّكرار فعاليته قدّم ابن المقفّع متعلقات خبر كان من شبه الجملة قصد إنهاء العبارات بالمسند؛ لإبرازه دلالياً دون منافسة من دلالات باقي الكلّمات المشاركة له في التركيب، فهي آخر ما يسمعه القارئ، ومن ثم يكون أثرها أكثر حضوراً وإقناعًا من غيرها، وليكون تنوين الفتح خاتمة للجملّ ليحقّق سبكًا صوتيًا قائمًا "على وجود عناصر صوتيّة، تشيع جوًّا من التوحّد السّمعي بين جمل النّصّ عند القارئ من خلال تكرار المقاطع الصوتية نفسها بإيقاع منتظم على مسافات ثابتة. ويجعل هذا الانتظام الإيقاعي جمل النّصّ تبدو للوهلة الأولى مترابطة؛ فيؤدي هذا إلى قبولها مبدئياً من القارئ"(١). وقال: " الناس إلا قليلاً ممن عصم الله مدخولون في أمورهم؛ فقائلهم باغ، وسامعهم عيّاب، وسائلهم متعنّت، ومجيبهم متكلّف "(٢).

وهنا تكرار لبنى اسميّة مبتدؤها على هيئة اسم الفاعل، وخبرها صفة مشبهة، ونهضت الجمل الإسمية بدور التفسير والتوضيح للبنية الإسمية الثابتة السابقة؛ لتوصل رأي ابن المقفّع في بعض أفراد المجتمع، الذين لا يتمتعون بأدبيّات السّلوك والتعامل مع الآخر، وبرز التّكرار في هذه الأمثلة وفق نمطين: الأول تركيبيّ تمثله الجملة الإسمية، والثاني تكرار بنية صرفية من اسم الفاعل في الابتداء، ومن الصفة المشبهة في الخبر مع اختلاف الدلالات؛ وفي هذا الانتظام جذب لانتباه المتلقي الذي يبقى ذهنياً ضمن دائرة تركيبية واحدة تتوالى، لكنّها تحمل دلالة جديدة؛ فالمتلقي ما بين تماثل من جهة البناء النحويّ والصرفيّ، واختلاف من جهة الدلالة؛ وهذا يحقّق اتساقاً وانسجاماً داخل مكونات الوحدة النّصّيّة، ومن ثمّ التأثير في نفس المتلقي؛ ليعاود النظر في سلوكه؛ إذ يرى ابن المقفّع أنّ هذه السّلبيات غدت من ثوابت المجتمع الأخلاقية التي لا بدّ وأن تتغيّر.

(١) فرج، حسام، **نظرية علم النّصّ (رؤية منهجية في بناء النّصّ النثري)**، ط٢، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٩، ص: ٨١.
(٢) ابن القفع، **الأدب الصغير والكبير**، ص: ٢٤.

وقال فيما يجب على المرء: "ليكن صدوقاً؛ ليؤمّن على ما قال، وليكن ذا عهد ليوفّى له بعهده، وليكن شكوراً؛ ليستوجب الزيادة، وليكن جواداً؛ ليكون للخير أهلاً، وليكن رحيماً بالمضرورين؛ لئلا يبتلى بالضّدّ، وليكن حافظاً للسانه مقبلاً على شأنه؛ لئلا يؤخذ بما لم يجترم، وليكن متواضعاً؛ ليُفرح له بالخير، ولا يُحسد عليه، وليكن قنعاً؛ لتقرّ عينيه بما أوتي"(١).

سيطرت على الوحدة النّصّيّة صيغتا الأمر والتعليل بحرف واحد هو "اللام"، مع إمكانيّة الخطاب توظيف أدوات، وأفعال أخر تؤدي الأمر والتعليل ذاته، لكنّه اختار تكرار صوت واحد يدلّ على معنيين؛ حفاظاً على نسق إيقاعي خاص. وفي ذلك دعوة واضحة من المنشئ إلى تبنّي جملة من القيم، وتحويلها إلى أفعال ومواقف، تستند إلى ما يجنيه المتتبع لها من حصاد وثمار. وقيام الخطاب آمراً ومعللاً، ورادعًا في الوقت نفسه له قيمة حجاجيّة إقناعيّة، وأظهر ابن المقفّع بمظهر الحكيم الناصح الذي خبر صروف الدهر، وابتلى الناسَ فيه؛ ما جعله حريا بأن يغنم صائبَ الرأي وصالحه.

وتتجلّى في هذه الوحدة النّصّيّة آلية حجاجيّة، نبّه إليها منظر الحجاج ببرلمان، وعدّها من التقنيات التي تتضمنُ دفعاً إلى العمل والتغيير، وهي الحجة البراغماتية. وحدّ هذه الحجة؛ أنّها الحجّة التي يحصل بها تقويم عمل ما، أو حدث ما باعتبار نتائجه الإيجابية أو السلبيّة. ومن هنا كان للحجة البراغماتية تأثير مباشر في توجيه السلوك، وعدّت من أهم وسائل الحجاج، وإنّ مراد هذه الحجة قائم على تثمين حدث ما بذكر نتائجه. والمقصود من هذه الحجة ليس مجرد التثمين، بل توجيه السلوك كذلك(٢). ويفضي حضورها المكثف في الأدب الصغير والكبير إلى قوة البناء المنطقي للوحدات النّصّيّة، وتأكيد أنّ العقل والتفكير ملازمان لدعوات النّصّ القيمية؛ ما يسهم في تقبل المتلقي لها(٣).

وقد كثرت العناصر المردّدة في هذه القطعة وتنوعت؛ لتحافظ على استمرارية شدّ انتباه المتلقي، وضمان متابعته، ومن ثم إحداث الإقناع والإذعان لحمولات الخطاب الدلالية. وقد كان الأمر بحرف "اللام" والتعليل بلام التعليل غاية الخطاب وهدفه، ولكنّ التعليل المكرر هو الأكثر فاعلية إقناعيّة في هذه المتواليات؛ فالأمر بالتزام تلك الأخلاقيات ليس جديداً، ولكن الجديد هو نتائج التزامها ومغبّات إثباتها؛ لأنّ المتلقي سيوجّه سلوكه لاستثمارها، والحصول على مكاسبها فيما بعد؛ فابن المقفّع يدرك حاجة النفس إلى ما تحصّله من وراء دعوات الخطاب؛ لتقبل عليه وتذعن له.

(١) المصدر السابق، ص: ٣١.

(٢) صولة، **الحجاج أطره ومجالاته**، ص: ٣٣٣.

(٣) فرج، **نظرية علم النّصّ**، ص: ١٤٣.

ومن البنى التي كررها خطاب ابن المقفّع بنية السؤال فقال: "قال رجل لحكيم: ما خير ما يؤتى المرء؟ قال: غريزة عقل. قال: فإن لم يكن؟ قال: فتعلّم علم. قال: فإن حرمه؟ قال: صدق اللسان. قال: فإن حرمه؟ قال: سكوت طويل. قال: فإن حرمه؟ قال: ميتة عاجلة"(١).

يستثمر ابن المقفّع في هذه الوحدة النّصّيّة تقنية السؤال الموجز، والجواب الموجز؛ لإخصاب غايات دلالية معيّنة في خطابه، وتنميتها فضلاً عن أبعادها الإيقاعية، فبدت اللوحة مسبوكة مترابطة متصلة؛ فكلّ سؤال يتناسل من سابقه، بواسطة ضمائر الإحالة القبلية التي أحدثت ترابطاً بين الأسئلة، وحالت دون تكرار قد لا يفيد إيقاع الخطاب، وعمّقَ الاستفهامُ المكرر الخيارات المتاحة أمام الإنسان من أعلى درجة يكون فيها حياً بالفعل إلى أدناها حين يفقد الحياة وهو يحياها. وهذه الوحدة النّصّيّة القائمة على تكرار الاستفهام تعدّ أنموذجًا على النّصّوص المسبوكة؛ وذلك لتحقق شروط الروابط التي تفيد السبك وهي: كثافة الروابط بين أجزاء الوحدة النّصّيّة المتمثلة في العطف، والإحالة، والتّكرار وقصر المسافة بين الروابط الكثيفة؛ ما أبرز السبك وجلاّه، وأخيراً عمل الروابط بصورة تكاملية؛ فبرزت وحدة واحدة أضفت على النّصّ صفة الاستمرارية(٢).

وبالرغم من حرص ابن المقفّع على استثمار استراتيجيات حجاجيّة عديدة ومتنوعة في خطابه إلا أنّ الاستفهام اقتصر على هذا النموذج حسب، في حين أنّ بنية السؤال/ الجواب توشك أن تكون "أساساً لأيّ حركة ذهنية، وأيّ تعامل مع الواقع، ومع الحياة ومع الإبداع، ومع الآخرين. ويشكلّان كذلك السؤال/ الجواب جزءًا ضخماً للغاية عندما نستقصيه في بنية اللغة التي نستخدمها في مستويات الاستخدام المختلفة(٣)، وقد ربطت سامية الدريدي بين أسلوب الاستفهام والحجاج، ورأت أن طرح الأسئلة في الخطاب "وسيلة هامة من وسائل الإثارة، ودفع الغير إلى إعلان موقفه إزاء مشكل مطروح، هذا الموقف يحدّده المتكلّم بقرائن، وموادّ اختباريّة تحضر في السّياق، وتقود عمليّة الاستنتاج المتّصلة بالسّؤال المطروح"(٤).

(١) ابن المقفّع، **الأدب الصغير والكبير**، ص: ٣٩.

(٢) فرج، **نظرية علم النّصّ**، ص: ٨١.

(٣) إسماعيل، عز الدين، **جماليات السؤال والجواب**، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٥، ص: ١١.

(٤) الدريدي، سامية، **الحجاج في الشعر العربي**، ص: ١٤١.

ونفسّر غياب الاستفهام في خطاب ابن المقفّع بانسجامه وتماشيه مع الخطابات التوجيهية فيما سبقه من إرث توجيهي قيمي في حقبة صدر الإسلام والعصر الأمويّ؛ فقد كاد أسلوب الاستفهام فيها أن يكون معدومًا أو نادر الظهور(١)، فضلاً عن رغبة ابن المقفّع في لعب دور الحكيم والمصلح، الذي يقدم رؤاه الإصلاحية دونما طلب وسؤال، مكتفياً بما يثيره خطابه من أسئلة وحوار بين المتلقي وذاته، أو بينه وبين متلقّين آخرين؛ الأمر الذي يفضي إلى تلاقح الأفكار والرؤى، وإثارة أسئلة حولها.

ولم يقتصر توظيف البنى المكرّرة على الجملة الإسمية حسب، بل كان للجملة الفعلية ضمن زمن معيّن حضور في خطاب ابن المقفّع؛ فقال: " والعقل بإذن الله، هو الذي: يحرزُ الحظّ، ويؤنسُ الغربة، وينفي الفاقة، ويعرّف النّكرة، ويثمر المكسبة، ويطيّب الثّمرة، ويوجّه السّوقة عند السلطان، ويستنزل للسلطان نصيحة السّوقة، ويكسب الصّديق، ويكفي العدو "(٢).

تختلف في هذه الوحدة النّصّيّة أو اللوحة التوجيهية دلالات الأفعال ذات البنية الصرفية المضارعة، غير أنّها مؤطّرة في وحدة زمنية واحدة تبقي على تواصل المتلقي، لا سيما وأنّ هذه الصيغ بالرغم من تعدّد دلالاتها إلا أنها تتشابه في دلالتها الإيجابية؛ فكلّها مكاسب يجنيها من حظي بنعمة العقل، وهذا يغري المتلقي ويشوقه إذ ينتقل من صورة إيجابية للعقل إلى غيرها في تتابع، ومعاودة جاذبة مؤثرة، ومجيء الأفعال على صيغة المضارع فيه استمرارية، وبعد عن الثبات، بل إنّه يرفد الحدث بالانطلاق والحركة الدائمة، ومما أعان على ذلك الإيجاز، وقصر الجمل، وترابطها بالعطف، وتكرار البنية المضارعة؛ مما يعزّز في نفس المتلقي قيمة العقل، واعتباره الموجّه لأفعال الإنسان، وهو سبب السعادة، وفي المقابل فإنّ من فقده فقد خسر السعادة وصلاح الدنيا.

أما البناء الآخر الذي اتكأ عليه ابن المقفّع وعدّ نسقًا من أنساق خطابه فهو أسلوب الشّرط، الذي حضر آلية إقناعيّة، وتقنية تداوليّة تسهم في تمكين طاقة الخطاب الحجاجيّة؛ لما فيه من علاقة الاقتضاء التي تصل الحجّة بالنتيجة المرصودة للخطاب، وتغدو العلاقة بينهما نوعاً من التلازم والترابط بحيث تستدعي كلّ واحدة منهما الأخرى(٣). وسنعرض بعض اللوحات الشّرطية ذات التلوينات التّكراريّة المتميزة:

---

(١) انظر: براهيمي، صوريّة، **خصائص الأسلوب الخطابي في عصر الخلفاء الراشدين**، رسالة ماجستير، جامعة محمد خيضر، الجزائر، ٢٠١٣، غانية، لعاني، **بلاغة النثر في العصر الأموي**، رسالة ماجستير، جامعة أحمد بن بلة، الجزائر، ٢٠١٥.

(٢) ابن المقفّع، **الأدب الصغير والكبير**، ص: ٢٣-٢٤

(٣) الدريدي، **الحجاج في الشعر العربي**، ص: ٣٣٥، وانظر: الشراونة، رسمية، **أسلوب الشّرط في خطب العرب ووصاياهم في كتاب جمهرة خطب العرب لأحمد زكي صفوت**. رسالة ماجستير، جامعة الخليل، فلسطين، ٢٠٠٩.

قال: "لا يؤمننّك شرَّ الجاهل قرابةٌ ولا جوارٌ ولا إلفٌ؛ فإن أخوفَ ما يكون الإنسان لحريق النار أقربُ ما يكون منها، وكذلك الجاهل؛ إنْ جاورك أنصبك، وإنْ ناسبك جنى عليك، وإنْ ألفك حمل عليك ما لا تطيق، وإنْ عاشرك آذاك وأخافك"(١)

وقال موجّهاً من رغب في صحبة الملوك: "لا تكونَنّ صحبتك للملوك إلا بعد رياضة منكَ لنفسك.....: على قلة الاستقباح لما فعلوا، إذا أساؤوا، وترك الانتحال لما فعلوا، إذا أحسنوا، والمقاربة لمن قاربوا، وإن كانوا بعداء، والمباعدة لمن باعدوا، وإن كانوا أقرباء، والاهتمام لأمرهم، وإن لم يهتموا به، والحفظ لهم، وإن ضيّعوه، والذكر لهم، وإن نسوه "(٢).

في اللوحتين النّصّيّتين كان تكرار البنية الشّرطيّة هو العامل الذي مدّها بطاقة تأثيريّة عالية، ولو جاءت كلّ عبارة منفصلة عن التالية لها، لما حظي المتلقي بهذا التنويع والتفريع ضمن جوّ تلازميّ واقتضائي حمل رؤية الخطاب ورأيه، وفتح أمام المتلقي أفقاً رحباً من الرؤية في الحياة، وطرائق التعامل مع الآخر مهما كانت مرتبته الاجتماعية؛ ففي اللوحة الشّرطية الأولى بني الشّرط على أصله، مع إمكانية إتيانه منزاحاً بحيث يسبق جواب الشّرط فعله، ولكنّ بناء الخطاب ومقامه ما قبل الشّرط استدعى تقديم فعل الجاهل أي فعل الشّرط؛ لأنه يشكلّ البؤرة الرئيسيّة في النّصّ، ومن الاقتراب منه يحذّر الخطاب وينبّه؛ لذا قدّم فعل الجاهل على النتيجةّ التي تسقط على مَن يحاول التعامل معه في أي نوع من علاقات المجاورة والنسب والألفة والعشرة؛ ليحذر منها، ولا يظن أنها ستغيّر من صفات الجاهل، أو تخفّف من عواقبها، ولو جاءت العبارة منزاحة مثل "أنصبك إنْ جاورك"، لبعد الحديث عن الجاهل مرتكز الكلام وغايته، ولصعب على المتلقي التقاط الضمائر المتكررة وعوائدها، فضلاً عن حمولات الشّرط المتكرر الدلالية، التي تشرح وتفسر تحذير الخطاب في ابتدائه بالنّفي معززاً بنون التوكيد؛ الأمر الذي أفضى إلى جملة من أنواع الحجاج تتضام معاً لإحداث التأثير، والإذعان في نفس المتلقي.

وفي هذا السياق لعلّ من المفيد بيان طريقة ابن المقفّع في إيصال المتلقي إلى فكرته؛ ليذعن إلى ما تحمله من توجيهات؛ فالشّرط المتكرر في اللوحة الأولى كان تتويجاً لعدد من الآليات الحجاجيّة التي سبقته، وعملت على تهيئة المتلقي للشرط وحمولاته؛ فقد بدأ النّصّ بالعامل الحجاجي النّفي؛ الذي بيّن أن لا شيء مما يقال عن الأمن مع الجاهل هو صحيح في الحقيقة، فما وراء النّفي مقولات مثبتة عند الناس تدّعي أن صلة القرابة أو الجوار أو الألفة الطويلة قد تحول دون وصول شرّ الجاهل إليك،

(١) ابن المقفّع، **الأدب الصغير والكبير**، ص: ٤١.

(٢) المصدر نفسه: ص:٧٤ – ٧٥.

فكان النّفي راداً لها وداحضاً. ونلاحظ أن الخطاب أجرى انزياحاً في العبارة حين قدم المفعول به "شرَّ الجاهل" على الفاعل، وما عطف عليه، وفي هذه الصدارة دلالة على أهمية المقدّم، وتسليط الضوء عليه. ولم يكتف الخطاب بذلك بل استمر في سلّمه الحجاجي، واعتمد استراتيجية أخرى حين وظّف التشبيه مقدماً المشبه به على المشبه؛ فالنار يزداد أذاها وخطرها كلّما اقتربت منها وكذا حال الجاهل، ثم وسّع الخطاب في صورة الجاهل، وما ينتج عن الاقتراب منه من سوء بواسطة التّكرار بالشّرط؛ مما يحرك دواعي الاستجابة والانقياد؛ فابن المقفّع يبرهن على صحة مقولته عن طريق سرد الحجج، وبسط الأدلة، والتدرج في ذلك ليردّ مقولات الآخرين، مستثمراً عدة آليّات إقناعيّة في آن.

أما اللوحة الثانية، فقائمة على إحداث انزياح في التركيب الشّرطي؛ إذ قدم جواب الشّرط على فعله. وقد استدعى هذا الانزياح غير سبب: أوّلها تركيبيّ؛ فحرف الجرّ الذي افتتح جملة الجواب المقدّمة يتعلق بالمصدر "رياضة"، ولو تأخرت جملة جواب الشّرط إلى موقعها الأصلي؛ لصعب على المتلقي ملاحقة الدلالة، ولا سيما في عبارات مكررة البناء ومختلفة الدلالة، وعليه فالانزياح أفضى إلى الترابط والانسجام بين الملفوظات، أما السبب الآخر، فمقاميّ إذ إن الحديث موجّه إلى من يرغب في مصاحبة السلطان، وما تتطلّبه هذه الصّحبة من سلوكات وتصرّفات، وهذا هو مقام الخطاب وبؤرته المركزية، وليس فعل الشّرط المتعلق بالسلطان ومَن حوله. فالتقديم والتأخير يعدّ أداة أسلوبية يتكئ عليها الخطاب بغية إبراز المعاني الدلالية بحسب ترتيبها في نفسي الباث؛ لشدّ انتباه المتلقي والتأثير فيه، وتحريك حسّه الفني وعواطفه.

وقد أعطى التّكرار فرصة لبروز عناصر تأثيرية أخرى مثل التّضادّ الذي، شكلّ رابطاً آخر غير البنية الشّرطية المتكررة، وهو ذو قيمة في تضامّ أجزاء الكلام، وإقامة علاقات دلالية داخل السياق النّصّي، أو خارجه؛ مما يؤدي إلى التلازم الذهني بين المتكلّم والمتلقي، وقد جاء التّضادّ بين عناصر جملة الشّرط الواحدة، وكذلك بين الجمل الشّرطية؛ الأمر الذي عزّز من حمولة اللوحة مكررة التركيب الحجاجيّة، ووسّع من الدلالات والأفكار، وأضفى شمولية على المعنى المراد بإظهار الدلالة ونقيضها، وجمع بين قضايا صغيرة في كلّ جملة ليكوّن قضية كبرى أو أساسية تقصدها الوحدة النّصّيّة[١]؛ وهذا زاد من فاعلية تكرار البنية الشّرطية؛ ليتمكّن المتلقي في النهاية من اتخاذ موقف وفق رؤية واضحة شاملة؛ فالعلاقة الشّرطية بين الجمل تعكس "جهداً واضحاً في الاستدلال، وحرصاً جلياً على الإقناع، أو

(١) فرج، **نظرية علم النّصّ**، ص: ١٤٢.

الحمل على الإذعان"[١]، وهي كذلك "إحدى العلاقات المنطقية التي تحكم النّصّ، وتؤدي إلى انسجامه، ومن ثم مقبوليّته لدى المتلقي"[٢].

والشّرط كذلك ذو مكنونات دلالية تؤثر في المتلقي بما فيها من بواعث التزيين والإغراء، أو التحذير، أو التهديد والوعيد، [٣]وتتعمّق حجاجيّة الشّرط حين يغدو عنصراً مهيمنًا على الوحدة النّصّيّة، ومرشدًا لمتلقيها ليربط ويصل بين السّلوك، ومغبّته الإيجابيّة أو السّلبيّة.

ومن الأبنية والأساليب التي وظّفها ابن المقفّع مستثمراً ما فيها من طاقة إقناعيّة "أفعل التفضيل صوره المكرّرة فقال: " اعلم أنّ من: أوقع الأمور في الدين، وأنهكِها للجسد، وأتلفِها للمال، وأقتلِها للعقل، وأزراها للمروءة، وأسرعِها في ذهاب الجلالة والوقار، الغرامَ بالنساء"[٤].

وقال: "إذا جُعِل الكلام مثلاً، كان ذلك أوضحَ للمنطق، وأبينَ في المعنى، وأنقى للسّمع، وأوسعَ لشعوب الحديث"[٥].

إنّ في إعادة البنية الصرفيّة على صيغة "أفعل التفضيل"، في بناء خبر أنّ "شبه الجملة" أو خبر كان المنصوب تشكيلاً لنوع من الإلحاح على المتلقي؛ للتعايش مع الجو النفسي والانفعالي والايقاعي بفعل تكرار صوت الكسر والفتح المتواتر والمتوافق مع حركة صيغة التفضيل، التي سبقها الأمر "اعلم" الذي يستدعي المزيد من الملاحظة والتنّبه، واستمرارية المتابعة للجوّ التفضيلي، الذي يأتي كلّ مرة بالصيغة ذاتها مغيراً في الحمولة الدلالية والقيمية. وقد وظّف ابن المقفّع هذا اللون من التّكرار؛ ليحمل المتلقي في نهاية اللوحة على الاقتناع برؤيته والأخذ بها. وعمد في اللوحة الأولى إلى إثارة التشويق إذ لم يفصح عن الشيء الذي ستقع عليه صيغة التفضيل السلبية إلا في نهاية اللوحة التّكراريّة، في حين أنه في اللوحة الثانية كشف من البدء عن المفضَّل، ومن ثم ذكر محاسنه التي يفضل بها غيره، وقد كرر البنية إلا أنه لم يكرر لفظها. وفي لوحة أخرى كرر البنية واللفظة معاً فقال: "أحقّ الناس بالسلطان أهلُ المعرفة، وأحقّهم بالتدبير العلماءُ، وأحقّهم بالفضل أعودُهم على الناس بفضله، وأحقّهم بالعلم أحسنُهم تأديباً، وأحقُّهم بالغنى أهلُ الجود[٦].

(١) الدريدي، **الحجاج في الشعر العربي**، ص: ١٤١.

(٢) المرجع نفسه، ص: ١٤١.

(٣) استيتية، سمير، **الشّرط والاستفهام في الأساليب العربيّة**، المكتبة اللغويّة، ٢٠٠٠، ص: ٧٢-٧٥.

(٤) ابن المقفّع، **الأدب الصغير والكبير**، ص: ٩١.

(٥) المصدر نفسه، ص: ٢٣.

(٦) المصدر نفسه، ص: ٢٧.

يشغل ترابط المنظومة القيمية والأخلاقية خطاب ابن المقفّع؛ فهو لا يرى انفصالاً في قيم المجتمع إذ كلّ فضيلة لا بدّ وأن تستدعي أخرى؛ ليتحقّق الانسجام المجتمعيّ، وليصدر الحكم على الأشخاص، وتقييمهم وفق ما يتمثلونه من قيم وظروف لا انفصام لعراها.

وابن المقفّع في هذا الإلحاح على ترابط القيم واتصالها يوجه انتقاداً للمجتمع ذي الرؤية القاصرة إلى القيم؛ فالجاهل لا يتولّى شؤون الناس، والعالم هو من يمتلك القدرة على التدبير لنفسه ولغيره، والفاضل من لا يبخل، والعالم لا يكون عالماً إلا إذا رافق الأدب علمه، أما الغني فالجود سمة رئيسة فيه. وهذا الترابط لا يراه ابن المقفّع حاضراً في المجتمع فنبّه إليه ووجّه؛ ليتمّ التغيير والإصلاح. وصيغة "أفعل التفضيل" فيها استثارة لنوازع النفس الإنسانية المسكونة بهاجس المفاضلة بين السّلبي والإيجابيّ؛ مما دعا خطاب ابن المقفّع إلى إتيان هذا الأسلوب حاملاً وداعياً متلقيه إلى اتّباع أفضل القيم، والابتعاد عن أقبحها وأرذلها. وقد نوّع ابن المقفّع في البنية التركيبية التي استثمر فيها أسلوب "التفضيل"؛ فانطلق من شبْه الجملة المقدمة خبراً للناسخ "إن.. إلى خبر الناسخ "كان" إلى المبتدأ في الجملة الإسمية، تلوين ما بين المسند والمسند إليه مصاحباً للتكرار عزّز من قدرة الوحدات في الولوج إلى عالم المتلقي العقليّ المنطقيّ.

ومن الأساليب التي اعتمدها خطاب ابن المقفّع أسلوب النّهي، وأسلوب التّوكيد بنون التّوكيد الثقيلة، وقد وظّف ابن المقفّع هذه التقنية (النهي والتوكيد) معاً في خطابه للسلطان، ولمن يتعامل معه بصورة أكثر مما وظّفها في ألوان خطابه الأخرى؛ ومسوّغ ذلك يكمن في الأهمية التي يحتلّها أثر فعل السلطان على نفسه وعلى الرعية، والأهمية التي يتبوأها فعل من أراد الاقتراب من السلطان؛ لأنّه إن لم يحسن أدبيات هذا الاقتراب، فالخطر عظيم ومغبته كبيرة؛ فقال مخاطباً السلطان[١]:

- "لا تقذفنّ في روعك أنك إن استشرت الرجال ظهر للناس منك حاجة إلى رأي غيرك".
- "عوّد نفسك الصبرَ على مَن خالفك من ذوي النّصّيحة، والتجرّع لمرارة قولهم وعذلهم، ولا تسهلنّ سبيل ذلك إلا لأهل العقل والسن ... ".
- "لا تتركنّ مباشرة جسيم أمرك فيعودَ شأنك صغيراً، ولا تلزمنّ نفسك مباشرة الصغير، فيصيرَ الكبير ضائعاً".
- "إذا كان سلطانك عند جدّة دولة، فرأيت أمراً استقام بغير رأي وأعواناً أجزوا بغير نيل، وعملاً أنجح بغير حزم، فلا يغرنَّك ذلك، ولا تستنيمنَّ إليه...".

(١) ابن المقفّع، **الأدب الصغير والكبير**، ص: ٥٦، ٥٧، ٥٧، ٥٩، ٥٩، ٥٩.

- "لا تكوننّ نزر الكلام والسلام، ولا تبلغنّ بهما إفراط الهشاشة...".

وقال مخاطباً حاشية السلطان(١):

- "لا تخبرنّ الوالي أن لك عليه حقاً ... ".
- "لا تتكلّمنّ عند الوالي كلّاماً أبداً إلا لعناية، .....، ولا تحضرنّ عند الوالي كلّاماً أبداً لا تعنى به أو تؤمر بحضوره ... ".
- "ولا تعدّنّ شتم الوالي شتماً، ولا إغلاظه إغلاظاً ... ".
- "جانب المسخوط عليه والظنين به عند السلطان، ... ولا تظهرنَّ له عذراً، ولا تثنينَّ عليه خيراً عند أحد من الناس ... ".
- "لا تتهاونّ بإرسال الكذبة عند الوالي أو غيره في الهزل ...".
- "إذا سأل الوالي غيرك فلا تكوننّ أنت المجيب عنه ...".
- "لا تجترئنّ على خلاف أصحابك عند الوالي ...".
- "لا تشكونَّ إلى وزراء السلطان ودخلائه ما اطلعتَ عليه من رأي تكرهه له ...".

أما الصداقة فقد توسل ابن المقفّع بالنهي والتوكيد مجتمعيّن في توجيه المتلقي نحو سلوكات لتكون الصداقة والتعامل مع الصديق وفق قيم تضمن بقاء أواصر الصداقة والمودة قائمة فقال(٢):

- "لا تعتذرنّ إلا إلى من يحبّ أن يجد لك عذراً،

  ولا تستعينّ إلا بمن يحبّ أن يظفرك بحاجتك،

  ولا تحدثنّ إلا من يرى حديثك مغنماً ما لم يغلبك اضطرار"
- "لا تتخذنّ اللعنَ والشتم على عدوك سلاحاً ...".
- "لا تصاحبنّ أحداً، وإن استأنست به أخاً ذا قرابة أو أخاً ذا مودة ولا والداً ولا ولداً إلا بمروءة...".
- "إذا كنت في جماعة قوم أبدأ فلا تعّمنّ جيلا من الناس أو أمة من الأمم بشتم ولا ذم...، ولا تذمنّ مع ذلك اسماً من أسماء الرجال أو النساء ... ".

(١) المصدر السابق، ص: ٦٦، ٦٨، ٦٨، ٦٨، ٦٨، ٧٠، ٧١، ٧٣.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٨٤، ٨٩، ٩٦، ١٠١.

وفي النهي خطاب مباشر للمخاطب "أنت"؛ مما يرفده بمزيد من التأثير على أهمية حمولات النهي التوجيهية؛ فيشعر المخاطب أن المنشئ يقصده هو دون غيره في خطابه النّاهي، وكأنّه خطاب مباشر بين باثّ الخطاب ومتلقيه، ويزداد وعي المخاطب بأهمية ما ينهى عنه بواسطة نون التوكيد الثقيلة، التي يفيض منها إيقاع لافت فيه تحذير وتنبيه. وفي تكرار حضور نون التوكيد المشدّدة بعد لا الناهية إدراك بأنّ للصوت في النّصّ طاقات جمالية؛ تعزّز سمات التأثير في المتلقي في ضوء سياقات معنية، غايتها إقناعه المتلقي بمضمون الخطاب، وحثّه على تلمّس النّصّ الأخلاقي بذائقة ذهنية عقلية تدفعه إلى الأخذ بحمولاته الدلالية.

تكرار كلمة:

لتكرار اللفظة المفردة ومعاودتها في خطاب ابن المقفّع حضور لافت ومكثف؛ إذ يتبوّأ مساحة واسعة من مدونته الأخلاقية، وقد اتكلّ عليه في تقديم وجهات نظره في القيم السّائدة، وفي دعوته المتلقي لتبنّي سلوكات وقيم توجه علاقته مع نفسه ومع الآخر. وهذا اللون من التّكرار سمح لابن المقفّع بعرض لوحات قيمية ذات دلالات عامة تجمع التراكيب الجملية الحاملة اللفظة المكرّرة، وترفد اتصالها واتساقها، لكنها في الوقت عينه تحمل في كلّ تكرار دلالات جديدة؛ الأمر الذي وسّع في الحمولات الدلالية للّوحة التّكراريّة ضمن ضبطها في إطار دلالي أوسع وأشمل؛ وذلك قصدَ الاستحواذ على المتلقي، وحصره في جوّ دلاليّ عام مكرّر غير مرّة، ومن ثم توجيه انتباهه إلى تفرّعات دلاليّة جديدة غير منفصلة عن الدلالة العامة بواسطة روابط متنوعة؛ قال:" فالمروءاتُ كلّها تبعٌ للعقل، والرأيُ تبعٌ للتجربة، والغبطةُ تبعٌ لحسن الثناء، والسرورُ تبعٌ للأمن، والقرابةُ تبعٌ للمودة، والعملُ تبعٌ للقدر، والجدّة تبع للإنفاق "(١).

يستهدف ابن المقفّع من هذه اللوحة التي تكرر فيها الدال " تبع " تأكيد مفاهيم في الحياة لا يمكن أن تكون وتتحقق إلا بارتباطها بمفاهيم أخر، وإلا غدت قاصرة عن الوجود الحقيقي النافع، وهذا المعنى العام وهو التعالق والترابط أحدثه اللفظ المكرر "تبعٌ" في كلّ جملة، وصاحبت هذه العمومية الدلالية خصوصية احتوتها كلّ جملة، وذلك بتغيّر متعلقات المسند، وتغير المسند إليه.

(١) ابن المقفّع، **الأدب الصغير والكبير** ، ص: ٣٥.

وقد عزّز بناء الجمل الإسمية المثبتة من دور التّكرار الإقناعي؛ بسبب دلالة الإثبات والرسوخ فيما تضمّنه من أحكام ورؤية في الحياة، وكأنّ ابن المقفّع ينتقد المجتمع الذي يتجاوز الجانب الذي يشكل المبتدأ في الجمل الإسمية، ويجعله إيجابيًا وفاعلاً وهو الخبر المكرّر وتوابعه؛ فالرأي إذا لم يصدر عن تجربة هو رأي قاصر، والقرابة ليست قرابة دم حسب، بل لابدّ لها من المودة والصّلات الطيبة، وسعادة الإنسان في أمنه وأمانه.

وهكذا فإن التّكرار بمصاحبة الإيجاز والإثبات عناصر اجتمعت في هذه اللوحة وتعاونت في تمتين لحمة الخطاب، وبواسطتها يوصل ابن المقفّع أفكاراً ومفاهيم رأى خللاً في فهمها عند أفراد مجتمعه؛ الأمر الذي من شأنه تعميق رؤية المتلقي للحياة، وترابط قيمها واتصالها. وكان الإيجاز رافداً مهماً في إبراز دور التّكرار والإثبات؛ لأنّه وجّه المتلقي نحو فكرة معيّنة دقيقة من غير أن يشغله بتفاصيل قد تؤثر في حمولات الخطاب الدلالية، وترك للمتلقي حرية تصوّر التفاصيل.

وفي تكرار الدّالّ "تبع" تحقيق لعلاقة التابع والمتبوع فلا يسلك التّابع أيّ طريق إلا بعد أخذ الموافقة والرضى من المتبوع الذي يوجّه، وبه ينماز الحقّ من الباطل، وصواب الرأي من خطئه. وهذه الدلالة لا تحققها في هذا المقام دوالّ مثل: متصل، مرتبط، أو حتى مندمج أو غير منقطع أو غير منفصل.

وقال: "تحرر من: سُكْرِ السلطانِ وسُكْر المالِ وسُكْر العلمِ وسُكْر المنزلةِ وسُكْر الشبابْ "[١].

وقال: " احترس من: سَوْرة الغضب، وسَوْرة الحميّة، وسَوْرة الحقد، وسَوْرة الجهل "[٢].

ينبعث من هاتين اللوحتين منذ البداية جوٌ من الترقب والحذر، يحفّز المتلقي على التنبّه والاستعداد، وذلك باستعمال فعلي الأمر: "تحرّر" و "احترس" وكأنّه يؤشّر في اللوحة الأولى إلى ما يشكلّ استعباداً للإنسان، وسيطرة ضارة عليه؛ لذلك لا بدّ من العمل على الخلاص وطلب الحرية، ويحثّه في اللوحة الثانية على أخذ الحيطة والحذر مما سيأتي به الخطاب، ومن ثم يبدأ الخطاب بذكر ما يشكلّ بؤرة النّصّ ومركزيتّه، وهو اللفظ المكرر الأول " سكر " الذي اعتاد المتلقي على ربطه بالمسكرات المحرّمة وهي الخمر، فيفاجأ بمسكرات أخر لم يقع في خاطره أنها تؤثر سلباً في حياة الإنسان، إذا سيطرت عليه فهي تسلب عقله وسليم منطقه وحكمه. وأما اللفظ المكرر الثاني "احترس،" فهو كذلك يفاجئ المتلقي بما جاء بعده أو بما وقع عليه؛ إذ نتوقع أن نحترس من الذنب أو العدو، أو حيوان مفترس أو إنسان ما، فيأتي طلب الاحتراس من الذات الإنسانية نفسها التي تتجاوز الحدّ، وتبالغ في ترك العنان لانفعالاتها، والسير خلف طبائعها الضارة. وهكذا فإن التّكرار قد خلق حالة التوقع

(١) ابن المقفّع، **الأدب الصغير والكبير** ص: ٧٦.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٨٥.

والترقب عند المتلقي مبعثها تكرار كلمة معيّنة، وإخراجها من معهود توظيفها عند المتلقي، الذي يكون مهيئاً ومتشوقاً لاستقبال تتابعات جديدة جراء هذا التّكرار؛ مما يحفّز جانب التخييل عنده فيبدأ بتصوّر وقوع ما حُذّر منه.

وتكرارات الخطاب في هذه الملفوظات النّصّيّة تمثيل واضح لنظرية الاقتصاد اللغوي، التي تعني إحراز أكثر ما يمكن من المعاني بأقل ما يمكن من الألفاظ؛ فيغدو الكلام أبعد معنى، وأقل لفظاً(١). وتجلّى هذا واضحاً في التراكيب الجملية للوحدات النّصّيّة، التي تأخذ المتلقي إلى آفاق رحبة من الحقول الدلالية المتنوعة، والأفكار المتفرعة عنها؛ فينشغل بمظاهر سيطرة المال والسلطان وغيرها على الإنسان فتحيله عبداً لها، ومن ثم ينشغل بكيفية مقاومتها، وكذلك تحثّه على مجاهدة الطبائع السلبية ومغالبتها، وعدم الاستسلام لها مثل حدة الغضب والحميّة والحقد. وفي اللفظين المكررين "سكر وسورة" إيحائية عالية؛ إذ توحيان في دلالتهما بأكثر من مدلولهما الظاهري، وتنطويان على جملة من المعاني المتعددة؛ مما يشيع في نفس المتلقي مناخًا تحليليًا خاصًا بنسق النفس، وحركة ذبذباتها الشعورية. وكلّما كانت إيحائية الكلمة المختارة عالية كانت قيمتها الفنية عالية كذلك، وتزداد هذه القيمة حين تتكرر هذه اللفظة، وتدخل في سياقات متنوعة، وتشيع إيقاعات موسيقية في كلّ تكرار ومعاودة(٢).

وقال: " أصلُ العقل التثبّت، وثمرته السّلامة، وأصلُ الورع القناعة، وثمرته الظّفر، وأصل التّوفيق العمل، وثمرته النجح "(٣).

تؤسّس اللفظتان المكررتان في هذه اللوحة النّصّيّة بؤرتي الخطاب وغايته؛ فالأولى "أصل" ترسخ أساس مفاهيم معيّنة وقاعدتها ومنطلقها، يرى ابن المقفّع أنها لا تنفصل في حقيقتها؛ لأنّ الأصل فيها أن تكون مترابطة لا انفكاك للعرى والوشائج بينها. وعمل ابن المقفّع على تحقيق هذا بواسطة الجملة الإسمية المثبتة، وتكرار المبتدأ " أصل، " ليترسّخ قاعدة المعنى وأساسه، مع أنّ الخطاب كان يمكن أن يكون كالآتي: " التثبت أصل العقل " ... لكنه آثر أن يتصدّر الدّالّ المكرر الجملة لافتاً انتباه المتلقي إليه وإلى خبره. ولم يكتف الخطاب بما أقرّه وأثبته في الجملة الأولى ومعاودتها، بل أتبعه بإثبات آخر عاود فيه ذكر المبتدأ باللفظ (ثمرته)، ووصل بين الجملتين المثبتتين بالرابط الضمير، الذي يعود على المبتدأ الأول، واستعمل طريقة البناء ذاتها حين قدّم اللفظة المكرّرة؛ لتسليط الضوء

(١) بناني، محمد الصغير، **النظريات اللسانيّة والبلاغيّة عند العرب**، ط١، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٦، ص: ٢٦٣، بديدة، يوسف، **بلاغة الإيجاز في الشعريّة العربيّة**، رسالة ماجستير، جامعة الحاج لخضر/ باتنة، الجزائر، ٢٠٠٩، ص: ٩-١٦.

(٢) جاب الله، أسامة، **دلالة الألفاظ في التفكير البلاغي (دراسة تحليلية)**، ص: ٥٨.

(٣) ابن المقفّع، **الأدب الصغير والكبير**، ص: ٣٦.

عليها، ولتتبوأ المكانة نفسها التي اتخذها اللفظ المكرر الأول (أصل). وحضر اللفظ المكرر الثاني مدعّما حمولة التّكرار الأول فضمّ المقدمات إلى نتائجها، والثوابت إلى عواقبها وهي: السلامة والظفر، والنجح، التي تشكلّ مآلات التثبت والعمل والقناعة.

وعليه فقد راوح هذا النّصّ بين نوعين من التّكرار: تكرار البنية، وتكرار الكلمة؛ لإقرار حقائق يرى ابن المقفّع أنّها من ثوابت الحياة، أو هكذا جدير بها أن تكون، فتآزر التّكرار بشقيه كان؛ لإحداث مزيد من الأثر في المتلقي.

وفي سبيل علاج عيوب انتشرت في المجتمع، فإنّ التّكرار اللفظي لكلمة معيّنة كان من وسائل ابن المقفّع في تعليم متلقيه الطريقة الناجعة للتعامل معها، وتجاوزها وتطهير النفس منها؛ فقال: " ليكن ما تعامل به الحسدَ أن تعلم أنّ خيرَ ما تكون حين تكون مع مَن هو خيرٌ منك، وأنّ غنماً لك أن يكون عشيرك وحليفك: أفضلَ منك في العلم، فتقتبسَ من علمه، وأفضلَ منك في القوة، فيدفعَ عنك بقوته، وأفضلَ منك في المال، فتفيدَ من ماله، وأفضلَ منك في الجاه، فتصيبَ حاجتك بجاهه، وأفضلَ منك في الدين، فتزدادَ صلاحاً بصلاحه"(١).

تدرّج ابن المقفّع في حمل المتلقي على بغض الحَسدَ وممارسته فابتدأ خطابه ببيان مساوئ صفة الحَسَدَ قبل أن يعلّم ويوجّه فقال: " ليكن ما تصرف به الأذى والعذاب عن نفسك ألاّ تكون حسوداً، فإن الحسدَ خلق لئيم، ومن لؤمه أنه موكلّ بالأذى فالأذى من الأقارب والأكفاء والمعارف والخلطاء والإخوان "(٢).

في البدء هيّأ الخطاب المتلقي بواسطة الجمل الإسمية ذات الدلالة الإثباتية المؤكدة بـ (أنّ) مرسخاً أن الحسدَ من مساوئ الأخلاق، بل وصفه بالخلق اللئيم الذي لا يعرف صاحباً ولا قريباً؛ لأن الحاسد لا يتورع عن أن يحسد أقرب الناس إليه. وبعد هذه التهيئة انطلق في اقتراح علاج للحاسد مع أن المعتاد أن يتوجه الخطاب إلى المحسود ببيان طريقة الوقاية من الحسد وأذاه لكن ابن المقفّع خاطب الحاسد نفسه، وهو مدرك أن الحاسد لا يتطلع إلى مَن هو أدنى منه بل إنّ نظره مرسل نحو مَن يملك ما لا يملكه هو، متمنياً زوال النعمة عنه؛ فالحاسد شخص تقوده رغبة الاستيلاء على ما عند الآخر، فعزز الخطاب فكرة الأخذ ولكن دون حسد، بل هو أخذ الصداقة والحب فقال للحاسد: بدلاً من كراهيتك الأفضلَ منك والمتفوقَ عليك اتّخذْ منه صديقاً؛ فالصداقة ستكون طريقك إلى الأخذ الإيجابي من الصديق دون ارتكاب فعل الحسد اللئيم، بل إنّك ستنال ما تتمناه من غير عناء وارتكاب الفعل السيء.

(١) المصدر السابق، ص: ٨٨.

(٢) المصدر نفسه ص: ٨٨.

وليوصل المتلقي إلى هذه المرحلة وظّف التّكرار على وجهين: معاودة اسم "التفضيل (أفضل)، ثُمّ (الفاء السّببيّة) التي لحقها المكسبُ الذي ينتظره الحاسد في حال تقربه إلى مَن يحسده ومصاحبته. وفي أفعل التفضيل طاقة حجاجيّة واضحة، فأسلوب التفضيل أحد تقنيات ابن المقفّع التي وظّفها في خطابه، ولكنّ هذا المقام فيه اختلاف؛ إذ التفضيل ليس للمخاطب، بل لغيره فلم يقل للمتلقي: كن أنت الأفضل من المحسود في "العلم والقوة ..." أو على الأقل حاول، بل أقرّه على أنّه الأدنى من الآخر والأضعف، ومع هذا الفارق سيكون راضياً إذا اقتنع بأنّ في أفضليّة الآخر عليه خيراً كبيراً، بفعل الصداقة والعلاقة الإنسانية التي ستربطه مع الآخر الأفضل؛ فكان تكرار القسم الأول من الجملة لتأكيد الفارق بين الحاسد والمحسود، وهو لصالح المحسود، وفي القسم الثاني كان لصالح الحاسد الذي سيفيد من صاحبه "علمًا، وحماية، ومالاً، وتقضى حاجاته، ويحسن دينه". وهذا الأسلوب أورث الخطاب تأثيرًا وإقناعًا ودعّم فكرته الأساسية.

والرابط السّببيّ الذي قامت عليه الوحدة النّصّيّة من العلاقات الحجاجيّة التي نبّه إلى جدواها في الإقناع والتأثير منظرو الحجاج في العصر الحديث(١)، وكذلك أشارت سامية الدريدي إلى إنّ المتكلّم في ربطه بين أفكاره، ووصل أجزاء كلامه "يعمد إلى مستوى أعمق من العلاقة فيجعل بعض الأحداث أسباباً لأحداث أخرى، ويسم فعلاً ما بأنّه نتيجة متوقعة لفعل سابق، ويجعل موقفاً معيّناً سبباً مباشراً لموقف لاحق؛ فإذا بالعلاقة السّببية علاقة شبه منطقية، هذه العلاقة تجعل النّصّ يحاكي نصوصاً منطقية في ترابط أجزائها، وتناسق أفكارها"(٢)، وهي ترى أنَّ العلاقة السّببيّة تظلّ "من أقدر العلاقات على ربط أجزاء الكلام، وهي من ثَمّ ذات طاقة حجاجيّة هامة؛ لأنّها تدخل ضمن ما يسمّى بالسّبيل التفسيريّة في الحجاج، وهي تقنية في الحجاج تثير الانتباه، وتستجلب الإصغاء، وتيسّر بالتالي قبول الحجج القاطعة"(٣).

ومن التّكرارات اللفظية الحجاجيّة قوله: "لا يستخفّ ذو العقل بأحد، وأحقّ من لم يستخفّ به ثلاثة: الأتقياء والولاة والإخوان؛ فإنّه: من استخفّ بالأتقياء، أهلك دينه، ومن استخفّ بالولاة أهلك دنياه، ومن استخفّ بالإخوان، أفسد مروءته"(٤).

(١) انظر: شارودو، **الحجاج بين النظرية والأسلوب**، ص: ٢٢-٢٧، صولة، **الحجاج أطره وتقنياته**، ص: ٢٣٢-٢٣٣.

(٢) الدريدي، **الحجاج في الشعر العربي**، ص: ٢٢٧.

(٣) المرجع نفسه، ص: ٢٣٤.

(٤) ابن المقفّع، **الأدب الصغير والكبير**، ص: ٣٧

وقوله: "اعلم أنّك: إن جاوزتَ الغاية في العبادة صرتَ إلى التّقصير، وإن جاوزتَها في حمل العلم لحقتَ بالجهال، وإن جاوزتَها في تكلّف رضى الناس، والخفّة معهم في حاجاتهم كنتَ المحشود المصنّع"(١).

تآزرت في اللوحة النّصّيّة الأولى ألوان حجاجيّة عدّة ،عملت على تقوية الحجاج وتمكينه بتكرار الدّال "استخفّ" خمس مرّات وهي: البدء بالنّفي، وهو عامل حجاجي لافت ومؤثر، ثُمّ الحجاج بتفصيل العدد ثلاثة، الذي يستفزّ المتلقي ليسأل عن سبب اختيارهم دون غيرهم، بل إنّهم "أحقّ" من غيرهم، ويشوّقه بالتالي إلى التنبّه لحمولة الإجابة والتفكر بعواقبها، وآخرها الحجاج بالتعليل المقاميّ، الذي ابتدأ بالتوكيد "بأنّ ،" وأهمّ هذه العوامل كان الشّرط، الذي أطّر كلّ هذه الألوان الحجاجيّة واحتضنها، وعزّز من تأثيرها بدلالته التلازمية الاقتضائية، وهو يعدّ بحدّ ذاته رابطاً حجاجياً بين مقدمة ونتيجة، وزاد من تأثيره تكرار فعل الشّرط ثلاث مرات ضمن ثلاث جمل شرطية؛ الأمر الذي قوّى من طاقته وتأثيره.

أما اللوحة النّصّيّة الثانية فتكرار اللفظة كذلك جاء محمولاً بالشّرط؛ لإفادة مضارّ المبالغة في ممارسة أفعال إيجابية، وهذا ملمح تربوي لافت عند ابن المقفّع لم يفته؛ فتجاوز الغاية في السلوك الإيجابيّ والمبالغة في أدائه يفضي إلى ترك وإهمال أشياء أخرى أساسية في الحياة؛ الأمر الذي يحوّل نتائج السلوك الإيجابي إلى نتائج سلبيّة. ومعروف أنّ أكثر ما يبالغ الناس في إتيانه دون تنبّه هو الشعائر الدينية، وطلب العلم، وتلبية حاجات الناس، ونسيان مطالب الأهل والنفس. إذن مقدمة الحجاج هي فعل التجاوز الواقع على أشياء إيجابية، لكنّ خاتمة الفعل سلبية؛ الأمر الذي يحمل المتلقي على إعادة التفكير في نمط حياته، والتوسّط والاعتدال في سلوكه؛ حتى لا ينقلب هذا السلوك إلى ضدّه بسبب المبالغة والغلوّ. وكان يمكن للخطاب أن يكون مباشراً ويدعو المتلقي إلى التوسط والاعتدال في حياته الخاصة والعامة، دون التّوسّل بالبنية الشّرطية المكرّرة مع فعل الشّرط، ولكن حينها فإنّ حمولة الخطاب الإقناعيّة لن تكون على المستوى ذاته المتحقق من تكرار توظيف البنية الشّرطية.

ومن الأبنية التّكراريّة اللفظية التي وظّفها خطاب ابن المقفّع إحداثُ تغيير في رتبة الكلمة المعادة، وفي موقعها ضمن العبارة المكرّرة؛ فقال: "عملُ الرجل فيما يعلم أنّه خطأ هوى، والهوى آفة العفاف، وتركُه العلمَ بما يعلم أنّه صواب تهاون، والتهاون آفة الدين، وإقدامُه على ما لا يدري أصواب هو، أم خطأ جماح، والجماح آفة العقل"(٢).

(١) المصدر نفسه، ص: ٩٤.

(٢) ابن المقفّع، **الأدب الصغير والكبير** ص: ٣٤.

وقال: "الظفر بالحزم، والحزم بإجالة الرأي، والرأي بتحصين الأسرار"(١).

وقال: "فإن لكلّ مخلوق حاجة، ولكلّ حاجة غاية، ولكلّ غاية سبيلاً"(٢).

يسهم هذا اللون من التّكرار في إنتاج دلالات جديدة توسّع من معاني الخطاب وموجّهاته القيميّة، وتعطيه تناميًا تصاعديًّا؛ فالكلمة التي تنهي الجملة الأولى بوصفها مسنداً تتبوّأ استهلال الجملة الثانية بوصفها مسندًا إليه؛ وهذا الانتقال يحيل إلى تغيّر في الرتبة النحوية، وبالتالي إلى تغيّر في درجة الأهمية، والقيمة الدلالية التي تكتسبها اللفظة من الرتبة الجديدة؛ ففي المثال الأول انتقل الدّالّ " هوى " من كونه خبراً لمبتدأ إلى كونه مبتدأ، وانتقل كذلك من التنكير إلى التعريف، ونقل الخطاب إلى دلالة جديدة، فغدا هو مركز الخطاب وبؤرته. وفي المثالين الثاني والثالث نلاحظ استمرار هذا العبور والانتقال للدّوالّ، لتحتلّ رتبة تركيبيّة جديدة، ويتفرّع عنها كذلك دلالات أخر توسّع من رؤية الخطاب وامتداده. ويؤدي هذا اللون التّكراريّ وظيفتين: وظيفة إيقاعيّة تكمن في هذا التّصادي والتّكرار الصّوتي، الذي يعمل على نواتج الجمل وترابطها، ووظيفة دلالية متأتّية من توالد المعاني والأفكار، وخروج بعضها من أعطاف بعض(٣).

ومكّن هذا اللون التّكراريّ ابن المقفّع من ترتيب حججه وقناعاته في الحياة، ومن التأكيد على أنّ القيم مترابطة متصلة لا انفصال لعُراها، وهذا يقارب ما يسّمى بالسّلم الحجاجيّ الذي يرتّبه ابن المقفّع بصورة تصاعديّة إلى أن يصل في نهاية اللوحة التّكراريّة إلى أقصى ما يصل إليه الإنسان إذا ما تهاون في إتيان فعل ما، فحذّر الخطاب من الفقر مثلاً؛ لأنّه يقود إلى جملة من الأفعال التي يستدعي بعضها بعضًا ليصل في نهاية السّلّم إلى أن الفقر يفضي إلى ذهاب العقل". ويعرف السّلّم الحجاجيّ بأنه: " مجموعة غير فارغة من الأقوال مزوّدة بعلاقة ترتيبيّة، وموفية بالشّرطين التاليين:

أ) كلّ قول يقع في مرتبة ما من السّلّم الحجاجيّ يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه.

(١) المصدر نفسه، ص: ٤٢.

(٢) المصدر نفسه ص: ١١.

(٣) القرعان، فايز، **في بلاغة الضمير والتّكرار (دراسات في النّصّ العذري)**، ط١، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠١٠، ص: ١٣٠.

ب) كلّ قول كان في السلم دليلاً على مدلول معيّن، كان ما يعلوه مرتبة دليلاً أقوى عليه"[١].

ونمثّل على فكرة السّلم الحجاجيّ بقول ابن المقفّع: "ومن نزل به الفقر والفاقة، لم يجد بداً من ترك الحياء، ومن ذهب حياؤه، ذهب سروره، ومن ذهب، سروره مقُت، ومَن مقت أوذي، ومن أوذي حزن، ومن حزن، فقد ذهب عقله، واستنكر حفظه وفهمه"[٢].

في هذه الوحدة النّصّيّة يسبر ابن المقفّع غور النفس الإنسانية حين يحلّ بها الفقر والاحتياج، متدرجاً في بيان نتائج الفقر ومغبته؛ وليحقّق ذلك اتّبع تركيباً يقوم على تكرار البنية الشّرطية رابطًا بين هذه البنى المتكررة بالعطف، وباللجوء إلى تقلّب دور جملة جواب الشّرط، وتحوّلها إلى جملة فعل الشّرط في بناء شرطي آخر متّصل بما قبله بالعطف؛ الأمر الذي يحافظ على تواصل المتلقي للتطور الذي يطرأ على حالة مَن ابتلي بالفقر؛ ليصل في نهاية الخطاب إلى التحذير منه، والعمل على الإفلات من قبضته، وهذا أبلغ من التحذير المباشر من الفقر، وأكثر تمكينًا في نفس المتلقي. وكانت اختيارات ابن المقفّع لأفعال الشّرط وأجوبته ذات تأثير كبير عند متلقيها مثل: المقت، والحزن، والأذى، وذهاب العقل؛ الأمر الذي فيه ترهيب وتخويف وتحذير كبير. ويمكن ترتيب أدلة ابن المقفّع حسب نظرية السلالم الحجاجيّة هكذا:

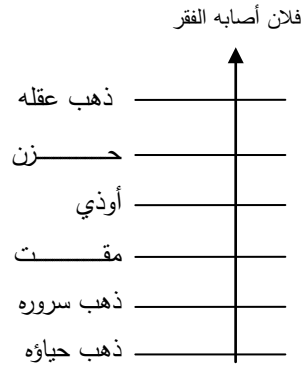

تبدأ الحجج بالأضعف، وتتصاعد عموديًا إلى أن تصل إلى أقواها وأعلاها، وهي ذهاب العقل.

(١) عبد الرحمن، طه، **اللسان والميزان أو التكوثر العقلي**، ط٤، المركز الثقافي العربي، المغرب، ٢٠١٦، ص: ٢٧٧-٢٣٩، وانظر: الشهري، عبد الهادي، **استراتيجيات الخطاب (مقاربة تداولية)**، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٤، ص: ٥٠٠، المبخوت، شكري.

(٢) ابن المقفّع، **الأدب الصغير والكبير**، ص: ٤٤.

ونلحظ في هذه الوحدة النّصّيّة تغيّرًا في دور التراكيب الحجاجيّة؛ فما كان نتيجة في البنية الشّرطية الأولى، أصبح حجّة في الجملة الثانية؛ فترك الحياء نتيجة للفقر والفاقة الذي يمثّل الحجة أو المقدّمة، ثم تحوّل ترك الحياء إلى حجة ومقدمة، حين أصبح يشكلّ جملة فعل الشّرط في الجملة الثانية، وبنيت عليه نتيجة، وهي ذهاب السرور، وهكذا يبقى المتلقي مشدوداً يتابع سير الحجج والمقدمات والنتائج المتسعة المترابطة الموصلة إلى نهاية الفكرة؛ "وكلّ ذلك من شأنه أن يجعل المحاوِر يقوم بعمل الصانع الحقيقي، والباني الفعلي للموضوعات التي يدور عليها كلامه؛ فالوجود التخاطبيّ وجود مبنيّ ومصنوع، لا وجود خام وممنوح"(١).

وقال: "الناس إلاّ قليلاً ممّن عصم الله مدخولون في أمورهم ...، وواعظهم غيرُ محقّق لقوله بالفعل، وموعوظهم غيرُ سليم من الاستخفاف، والأمين منهم غيرُ متحفّظٍ من إتيان الخيانة، والصدوق غيرُ محترس من حديث الكذبة، وذو الدين غيرُ متوّرعٍ عن تفريط الفجرة، والحازم منهم غيرُ تاركٍ لتوقّع الدوائر"(٢).

شُيّد البناء التّكراريّ اللفظي في هذه الوحدة النّصّيّة على تكرار الدّال (غير)، الذي اختلفت دلالات تعليقه وتعددت في كلّ تكرار مؤسساً انتقاد الخطاب للمجتمع، الذي يخالف ظاهره باطنه؛ فظهر الابتداء حاملاً صفات أسندها المجتمع إلى شخصيات تمثل نماذج إيجابية وقدوة حسنة فيه، ومن ثمّ أتى بالخبر مصدراً بـ "غير،" التي سلبت إيجابية المبتدأ، وجرّدته من أهم ما يميزه أو يسمه؛ فالواعظ لا يتّسق سلوكه ومضامين وعظه، والموعوظ لا أثر للوعظ في حياته، وهكذا يتسلل إليهم النقص جميعا، ويقعون فيما يناقض ما اشتهروا به ووسموا؛ فجاءت أوصاف متعددة ونواقص متعددة كان تكرار اللفظ "غير" رابطاً دلالياً عاماً لها، ورسم الخطاب بتكرارها لوحة للمجتمع ذات بعدين: إيجابيّ ظاهر، وسلبيّ خفيّ؛ ليرى المتلقي أبعادًا أخرى مختلفة عن تلك التي ألفها واعتادها، وترسّخت صورة ثابتة وقارّة عنده؛ ليبدأ في تشكيل رؤيته الخاصة الواعية، ولا ينخدع بالمظاهر.

وهكذا تحتلّ اللفظة المكرّرة المركز الدلالي الذي ينطلق منه الخطاب في التركيب الأول؛ ليعود إليه في معطوفات تركيبية عدة، خالقاً كلّ مرة معنى جديداً متعلقاً باللفظة المكرّرة التي نجلّت عاملاً دلالياً مشتركاً بين الجمل المعطوفة، فضلاً عن التّضادّ بين ما سبق "غير"، وما تلاها؛ ما عزّز من وظيفة التّكرار، وعمّق أثره في الحجاج والإقناع.

(١) عبد الرحمن، **اللسان والميزان**، ص: ٢٧٩.

(٢) ابن المقفّع، **الأدب الصغير والكبير**، ص: ٢٤.

وقال ابن المقفّع معاوداً الدال (فضل): "إن العاقل ينظر فيما يؤذيه، وفيما يسرّه، فيعلم أنّ أحقّ ذلك بالطلب؛ إن كان مما يحبّ، وأحقّه بالاتقاء، إن كان مما يكره أطوله وأدومه وأبقاه، فإذا هو قد أبصر فضلَ الآخرة على الدنيا، وفضلَ سرور المروءة على لذّة الهوى، وفضلَ الرأي الجامع الذي تصلح به الأنفس والأعقاب، على حاضر الرأي، الذي يُستمتع به قليلاً ثم يضمحل، وفضلَ الأكلات على الأَكلة، والسّاعات على السّاعة "[1].

إنّ اللفظة المكرّرة بحمولاتها الدلالية المتعددة التي تفاضل بين خيارات الإنسان العاقل شكلّت جملة تفسيريّة تعليليّة لما سبقها من توجيه للعاقل بالأسس التي يتوجّب عليه مراعاتها حين ينتقي خياراته في الحياة؛ الأمر الذي بموجبه سيحكم على هذا الإنسان بأنّه من العقلاء، أو الجهلاء، وذلك حسب ميوله وتوجهاته. وللتعليل والتفسير دور في دفع القارئ نحو فعل وسلوك معيّن؛ أي أنّه يستدعي مزيدًا من الطاقة الحجاجيّة التأثيرية؛ كونه يفتح آفاقاً أوسع وأعمق أمام المتلقي؛ ليرى الفعل ونتائجه، ومسوّغات الدعوة إلى اتباعه.

ويحمل الدّالّ المكرر "فضل" عناصر الجذب في ذاته قبل أن يكون جزءاً من السّياقات التي وردت في النّصّ؛ لكونه يرتدّ إلى مرجعيّات دلاليّة ومعنويّة مقبولة ومحبّبة في ذهن المتلقي مثل: المفاضلة، والتفضيل، والأفضل، والفضائل؛ ما يضع المتلقي العاقل في جوّ إيجابي حال قراءته لفظة "فضل"، لا سيما وأنّ الفعل "أبصر" قد وقع عليها، وهو فعل يرتدّ إلى مرجعيّة الحكمة، وما وراء الظاهر والاحتكام إلى المنطق والعقل، أي أنّ الفعلَ وما وقع عليه ومتعلقاته لم تكن إلا لفضل التدبّر وحسن الاختيار، وعليه فالمخاطب يعمد إلى اختيار كلمة دون أخرى مما يرادفها أو يظن أنه يرادفها، إنّما يرمي إلى مزيد من التأثير في المتلقي، على أساس أنّ الكلمة المختارة أعلق بعالم الخطاب وأمضى أثراً فيه؛ فللكلمة خصائص في ذاتها تستمدها من اللغة، ومن التّداول تجعلها مؤهّلة بطبيعتها لتكون ذات صبغة حجاجيّة، وترشّحها لتكون من معجم الخطاب الحجاجيّ، وقوام جداوله اللغوية"[2].

وكان متاحاً للخطاب توظيف مفردات أخر من الحقل الدلاليّ ذاته مثل: ميزة/ حسن/ أهمية/ قيمة لكنّ لفظة "فضل" حظيت باختيار المنشئ؛ لأنّ "المقام يستدعيها أكثر مما يستدعي غيرها، وأنّ هدف إقناع المتكلّم مخاطبه يقتضيها أكثر مما يقتضي غيرها"[3] مع مراعاة أنّ اختيار اللفظة لتؤدي فعلاً حجاجياً لا يتأتّى إلا بمؤازرة آليّات إقناعيّة أخر، تتعاضد معاً لبلوغ غاية الخطاب ضمن ظروف مقاميّة مناسبة.

(١) المصدر نفسه، ص: ١٥.

(٢) صولة، عبدالله، **الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية**، ص: ٧٣-٧٤.

(٣) حباشنة، **التداولية والحجاج**، ص: ٥٦.

وقد مثّل الدّال " فضل " مفتاحًا للجمل المعطوفة عزّز من فعلها المفضّلُ الإيجابيُّ الذي أعقبها مثل: الآخرة، والمروءة وسرورها والرأي الجامع، هذا التجاور لا بدّ وأن يرفدَ النّصّ بمزيد من التأثير؛ كونه يحمل المتلقي إلى آفاق رحبة من المعاني والمرجعيّات الإيجابيّة.

وكان يمكن لابن المقفّع أن يحذف الدّالّ (فضل) كما حذف الدّالّ (أبصر) في العطف، ويترك تقديره للمتلقي دون أن يؤثر سلباً على الفهم كأن يقول: قد أبصرَ فضل الدنيا على الآخرة، وسرور المروءة على لذة الهوى، والرأي الجامع على ... . ولو جاء الخطاب على هذا النحو لفقد قدراً كبيراً من حمولته التأثيرية؛ فالمعاودة هنا أبلغ وأقوى؛ بسبب حسن اختيار اللفظة المكرّرة صوتاً ومرجعية دلالية. بل كان للنص أن يعمد إلى توجّه تعبيريّ مغاير وهو البدء بالترهيب بدلاً من الترغيب والتزيين الذي حملته لفظة "فضل،" وما جاورها من مفردات مثل: أن يُقصرَ الإبصارُ على مساوئ لذة الهوى، والرأي المتفرد، لكنّ ابن المقفّع غالباً ما يركّز ويشدّد في خطابه على العناصر الجاذبة للمتلقي، ويتجنّب قدر الإمكان المفردات المتعلقة بالتنفير إلا إذا استدعاها المقام الحجاجي؛ لأنه يقصد تقديم الجمال والفضل؛ ليدرك المتلقي أهميّة اختياره الواعي لسلوكه، ولا ننسى دور الجانب الصّوتي للدّوالّ التي يختارها الخطاب، ويكررها مستثمراً جرسها الإيقاعي، وفعلها التأثيري في نفس المتلقي.

وقال ابن المقفّع موظّفاً شبكة من الاستراتيجيات الحجاجيّة المتنوعة عارضاً نظرة الناس للفقر والفقراء أو نظرته الشخصية؛ ليحثّ المتلقي العاقل على اجتثاث جيوب الفقر من المجتمع، والتمرّد على قبول المجتمع بهذه الفوارق: "وليس من خلّة هي للغني مدح إلاّ هي للفقير عيب: فإنْ كانَ شجاعاً سُميَ أهوجَ، وإنْ كانَ جواداً سُمّيَ مفسداً، وإنْ كانَ حَليماً سُمّي ضعيفاً، وإنْ كانَ وقوراً سُمّي بليداً، وإنْ كانَ لَسِناً سُمّي مهذاراً، وإنْ كانَ صموتاً سُمّي عيياً"(١).

يقول ابن المقفّع: "والفقرُ داعيةٌ صاحبَه إلى مقتِ الناس"(٢).

ولا يكتفي الناس عند حدّ مقت الفقراء ونبذهم وإقصائهم، بل إنّهم لا يقبلون باجتماع الفقر والقيم العليا النبيلة الإنسانية في نفوس الفقراء؛ فهم يرون أنّ هذه القيم ألصق بالأغنياء، وإن كانوا لا يتصفون بها أصلاً. وعليه فإنّ المجتمع الطبقي يسلب الفقير كلّ منقبة وميزة حسنة، ولا يقف عند هذا الحدّ بل إنّه يحولها إلى صورة مناقضة في حال برزت في سلوك الفقير، ويصم الفقير بما يتعارض معها؛ لقناعته أنّ الفقراء لا يصدر عنهم إلا كلّ رذيلة وسوء. ورفيع القيم ونبيلها إن لم يسلبها الفقر من

(١) ابن المقفّع، **الأدب الصغير والكبير**، ص: ٤٤.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٤٤.

الذات الإنسانية فإنّ المجتمع هو الذي يتولّى سلخها وسلبها عمّن قاوم فقره وعوزه، وتحلّى بقيم الشجاعة والجود والحلم.

وليحقّق الخطاب غايته الإقناعيّة التأثيرية في المتلقي، ويدفعه إلى العمل لنبذ الفقرِ، والعمل على تخليص المجتمع منه، وعدم الإقرار به واقعاً لا بدّ منه؛ فقد اتكلّ على جملة آليات أسلوبية ذات الطاقة الحجاجيّة العالية تفاعلت وتكاملت؛ لتوصل غاية الخطاب، وتؤثر في المتلقي.

صدّر ابن المقفّع خطابه بالحصر مؤكداً مقولته في تعامل المجتمع مع قيم إيجابية يمدح بها الغني، ويذم بها الفقير حين يؤولها الناس إلى قيم سلبية خاطئة، وفي الحصر حجب ونفي لأي احتمال آخر، وممّا رفع من حمولة الحصر الإقناعيّة الحجاجيّة التّضادُّ بين دالّيّ (الغنيّ/ الفقير) ودالّيّ (مدح/ عيب). فضلاً عن التقديم والتأخير في عبارتي: "هي للغنيّ مدح" و"هي للفقير ذم"؛ فالأصل تأخر شبه الجملة كونها من متعلقات خبر هي (مدح وعيب)، وفي هذا التقديم تأكيد على فكرة المقابلة بين الغني والفقير، وتوجيه اهتمام المتلقي إليهما بوصفهما بؤرتي جملة الحصر.

وفي جملة الحصر إجمال وإيجاز أدرك ابن المقفّع أنه سيثير لدى المتلقي أسئلة وتشويقًا للمزيد من الإيضاح؛ فكان التفصيل الذي يشرح ويؤكد، ويزيد من حجاجيّة الوحدة النّصّيّة، ومن وقع أثرها في السّامع.

وقد سعى الخطاب إلى توظيف آليات حجاجيّة في تفصيل ما أجمله؛ فبناه على هيئة تراكيب شرطية متكررة ذات طاقة حجاجيّة عالية؛ فتجلّى فيها تجميع إيقاعي هيمن على نهايات العبارات الشّرطية المكرّرة بشقيها جملة جواب الشّرط، وجملة فعل الشّرط، وتمثّل هذا الإيقاع بتنوين النّصّب بالرغم من اختلاف الوظيفة النحوية لهذه النهايات. وممّا زاد من أثرها الإقناعي، وزاد التراكيبَ الشّرطيّةَ سبكًا واتساقًا وأقام رابطًا فيما بينها، بنيتُها الصرفيّةُ الموحّدةُ على هيئة الصّفة المشبّهة؛ فما كان في جملة فعل الشّرط صفة إيجابية دائمة أو شبه دائمة منغرسة في نفس الفقير– بالرغم من قسوة الفقر وشدّته– حوّلها الناس في نظرتهم القاصرة غير العادلة إلى صفات مشبّهة سلبيّة في جملة جواب الشّرط؛ تحقيقاً للمفارقة الدلالية بين طرفي التركيب الشّرطي المكرر البنية، والمختلف دلالة في كلّ معاودة؛ فبدا أمامنا تراكم دلاليّ مؤثّر موجز معبّر عن غايته وهدفه غير مغلق وغير منته؛ إذ يفتح المجال واسعاً أمام المتلقي مستكملا المشهد بمزيد من المفارقات بين قيم الفقراء، وتأويل المجتمع لها بسلبها إيجابيّتها، وفعلها الحسن؛ لذلك حذف الخطاب كلّ ما يمكن أن يؤثر في بروز بؤرتي فعل الشّرط وجوابه؛ فحذف اسم كان من الأول، وحذف الفاعل ونائبه من الثاني.

وقد بدا لافتًا في التركيب الشّرطي المكرر معاودة الفعل المبني للمجهول "سُمّي" هذا الدال الذي يعدّ أساسًا للوحدة النّصّيّة وتراكيبها، وعُزّز أثره ببنائه للمجهول؛ إذ حذف الفاعل ونائبه لإبراز الفعل الذي يدل على إطلاق اسم يحمل الديمومة على الفقير، أو لقب يلازمه طوال حياته، فضلا عن إبراز المفعول به الثاني مقابلا به خبر كان في جملة فعل الشّرط. وهكذا تضافرت حمولة تكرار الدّالّ "سمّي" الحجاجيّة باجتماعه بباقي المكوّنات والأساليب الحجاجيّة الأخر.

وحرص ابن المقفّع في خطابه على تكرار بعض الدّوالّ ذات البنية الاسمية أو الفعلية على مستوى الخطاب العام في المدوّنة، ومن الدّوالّ الاسمية التي ردّدها بصورة لافتة لفظة "العاقل" أو "على العاقل" التي وردت في بداية خطابه؛ لتشكل صفة للمتلقي الذي يتوجّه الخطاب إليه، وقد ترددت عبارة "على العاقل" ما يربو على خمس عشرة مرة في بداية عباراته التوجيهيّة في مقدمة الأدب الصغير، وبعد ذلك لم يكن لها حضور مباشر؛ وكأنّه ثبّتها في ذهن المتلقي، ومن ثَمّ انطلق يبسط أفكاره وتنبيهاته السّلوكية[١]. ولكن لمَ لمْ يعمّم ابن المقفّع خطابه على الناس جميعًا، ليأخذ كلّ منه حسب فهمه وقدرته ؟

لعل الإجابة تكمن في موقف ابن المقفّع من العقل، وتقديمه على كلّ ما يتعلق بالإنسان فهو خير من المال، والفقير مَن لا عقل له، وكلّ صفة إنسانية إيجابية يتقدمها العقل هاديًا ومحفّزاً؛ لذلك مَن لا عقل له، ومن ليس بعاقل، فلا نصيب له من خطاب ابن المقفّع القائم على تحكيم العقل في حياة الإنسان ومعاشه؛ لذلك "كان عبر الأساليب التعليمية، وحيل الخطابة والإقناع ينحت نموذجًا لشخصيّة العاقل داخل المجتمع العربي الإسلامي. وهو ما يفسّره الإلحاح المبالغ فيه على اعتماد العقل، وتمجيده وذكر محاسنه التي لا تحدّ، وتبيان فضله الذي لا ينفد..."[٢]. فقال في "العقل "[٣]:

- "العقل الذاتي الصنيع، كالأرض الطيبة غير الخراب".
- "أنفع العقل أن تحسن المعيشة فيما أوتيت من خير".
- "ومن أحسن ذوي العقول عقلاً مَن أحسن تقدير معاشه ... ".
- "... قال رجل لحكيم: ما خير ما يؤتى المرء ؟ قال: غريزة عقل ... ".

(١) منصور، سعيد، **العقل في أدب** ابن المقفّع كما يمثله الأدب الصغير، **حوليات كلّية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية**، جامعة قطر، عدد٦، ١٩٨٣.

(٢) الفجاوي، مختار، خطاب العقل في أدب ابن المقفّع (وظائف الخطاب بين الحضور والغياب)، **مجلة جامعة طيبة**، السعودية، سنة٢، عدد ٤٤، ١٤٣٥هـ، ص: ٥٢.

(٣) ابن المقفّع، **الأدب الصغير والكبير**، ص: ٢٩، ٣٢، ٣٢، ٢٩، ٣٥، ٣٥، ٣٥، ٣٧، ٣٨، ٤٤، ٤٥، ٤٧، ٢٨، ٢٨، ٢٣، ٤١، ٤٢.

- "المروءات كلّها تبعٌ للعقل ".
- "لا ينفع العقل بغير ورع، ولا الحفظ بغير عقل ...".
- "أصل العقل التثبّت، وثمرته السلامة ...".
- "لا يستخفّ ذو العقل بأحد ".
- "لا عقلَ لمن أعقله عن آخرته ما يجد من لذّة دنياه ..."، وليس من العقل أن يحرمه حظه من الدنيا بصره بزوالها".
- "مَن أصيب في عقله وفهمه وحفظه كان أكثر قوله وعمله فيما يكون عليه لا له ".
- "لا عقل كالتدبير.
- "أغبط الناس من ذوي العقل أكثرهم سائلاً منجحاً ومستجيراً آمناً ".
- "العجب آفة العقل ...".
- "لا مال أفضل من العقل".
- "أشدّ الفاقة عدم العقل".
- "العقل غير الوازع عن الذنوب خازن الشيطان".
- "أهل العقل والكرم يتبعون إلى كلّ معروف وصلة وسبيلاً".

"يمثّل العقل إذن في أدب ابن المقفّع القاعدة الفكرانيّة التي يؤسّس على جذورها نموذجاً مجتمعياً، انطلاقاً من نحت أنماط السلوك العقلانيّ، وهذا يعني أنّ العقل هنا لا يطلب لذاته وإنّما لوظيفته" [(١)]. وقد بالغ الباحث الفجاوي حين عدّ خطاب ابن المقفّع مدعّمًا للتّشكل البنيوي للعقل الذي غدا يمثّل "الثابت البنيوي" في نصوصه قائلاً: ".. ويكفي أن نشير منذ البداية إلى أنّ ابن المقفّع بالرغم من عبارات الإيمان التي يرفعها، والإحالات الدينيّة غير المباشرة التي يتبنّاها فإنّنا لم نسجل له فيما كتب استشهادًا مباشرًا بالقرآن أو بالسّنّة النّبويّة. في المقابل تجد كلمة العقل تغطي ما يقارب نسبة ٩٠% تقريباً من نصوصه، وهذا يعني أنّ ابن المقفّع هو الذي وضع اللبنات الأساسيّة لتشكّل العقل بنية اصطلاحية في الأدب العربي، وذلك من خلال الحضور اللفظي المكثّف لعبارة (عقل) في كلّ كتاباته"[(٢)].

(١) الفجاوي، **خطاب العقل**، ص: ٥٢١.

(٢) المرجع نفسه، ص: ٥٠٣.

ولعل هذا الرأي يهجس بغياب خطاب العقل في القرآن الكريم، وأنّ ابن المقفّع مَن أرسى قواعد تفعيل الخطاب العقلي في التراث العربي الإسلامي، وهذا يتناقض وحضور الدعوة القرآنية إلى توظيف العقل للهداية والتفكر بالكون".

وأما عدم استشهاد خطاب ابن المقفّع بالقرآن الكريم والسنة النبوية بصورة مباشرة ففي ظني أن هذا لا يعني أن الخطاب يرغب في العقل على حساب النقل كما أشار الباحث حين قال: "وهذا يعني أنّ ابن المقفّع قد نصّب خطاب العقل بديلاً فكرانياً لخطاب النقل.." (١). بل أرى أنّه قصد إلى أن يكون خطابه كونيًا عامًا بحيث تقبله الثقافات جميعًا دون أن يكون قاصرًا على ثقافة معيّنة أو مرجعيّة دينيّة مباشرة، وإذا ما عدنا إلى عدد من وصايا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وتوجيهاته الأخلاقية على سبيل المثال نجدها تنحو هذا النحو بالرغم من انطلاقها أساسًا من مرجعيّات الخطاب القرآني، والخطاب النبوي(٢).

واللفظة الأخرى كثيرة الدوران في خطاب ابن المقفّع فعل الأمر "اعلم" الذي ذكر ما يربو على المئة مرة. واختيار هذا الفعل كان عن وعي وقصديّة؛ فالخيارات أمام المنشئ عديدة ومجالات القول وتراكيبه واسعة، ولكنّه آثر وقصد توظيف هذا الفعل وتكراره بحيث يبرز اللفظة الأكثر دوراناً في أدبه الصغير والكبير، ويمكننا الربط بين تكرار الفعل " أعلم " وتكرار "العاقل" و "العقل"؛ فمن لديه عقل لا بدّ له من توظيفه في كلّ ما يمتّ إلى العلم بصلة، ومن لا عقل له فهو مجانب للعلم معادٍ له، فضلاً لما للفعل "اعلم" من قبول نفسي عند المتلقي العاقل؛ لأنّ عقله لن يقبل بالظنون والخرافات؛ فهو أقرب إلى تصديق العلم الذي تأتي به التجربة وطول النظر والبرهان.

ومع أنّ فعل الأمر ثقيل على المتلقي، ولا سيما إذا كان أمراً مباشراً إلا أنّ صوغه على هيئة " اعلم " يخفّف كثيراً من صدى وقع الأمر على المتلقي العاقل، الذي حال سماعه الفعل تدور في ذهنه مشتقّات كثيرة منه مثل: علم / علماء / عالم / علاّمة / معلومة / معلم مدلولات ذات أثر كبير في الارتقاء بالإنسان والمجتمعات، وبغيابها لا رقي للإنسان ولا لمجتمعه. وبتكرار هذا الفعل " اعلم " يؤكّد ابن المقفّع أنّ ما يقدّمه إلى المتلقي بعد هذا الفعل، الذي أعقبته "أنّ" المؤكدة غالباً هو نوع من السلوكيات والمعلومات التي اختبرها العقل بالتجربة، وأثبتها بالبرهان، وأنّها قابلة لأن تكون واقعاً،

(١) المرجع نفسه، ص: ٥٠٥.

(٢) انظر: هديب: فريال، الخطاب الأخلاقي في وصايا العصر الإسلامي (مضامين وأساليب)، **حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية**، جامعة الكويت، الرسالة، ٥٥، حولية ٢٧، ٢٠٠٦.

وليست ضرباً من المثاليات أو من الخيال. ينضاف إلى هذا أنّ الفعل (اعلم) إخباري أقرب منه إلى الأمر، فكأنّه يقول لمتلقيه (أخبرك) بأمور غائبة عنك أو تجهلها[١].

ومن صور التّكرارات اللفظية في خطاب ابن المقفّع ما كان إتيانه وتوظيفه مقتصراً على فكرة معيّنة، أو يدور في فلك توجيه دلالي قيميّ خاص يحتضن أفكاره دالّ يساير الوحدة النّصّيّة منذ بدئها مطوراً أفكارها ملوناً أساليبها معززاً نجاعة حجاجيتها؛ فتأتي الوحدة النّصّيّة ذات معنى عمدة يحمله أمر بالتزام مبدأ وقيمة معيّنة تتخِذ شكل "القطب الذي تدور حوله بقية المعاني المشكلّة للوحدة النّصّيّة، التي تتضمّن نواة معنوية تنشدّ إليها بقية المعاني، وتشكلّ محيطها[٢]، وتعمل اللفظة المكرّرة على إيجاد نوع من الاستقصاء والارتقاء الدلالي لتقديم صورة مكتملة للمعنى تحيط بجوانبه كافة؛ قال ابن المقفّع: "ذلّل نفسك بالصبر على جار السوء، وعشير السوء، وجليس السوء، فإنّ ذلك مما لا يكاد يخطئك. واعلم أنّ الصبر صبران: صبر المرء على ما يكره، وصبره عمّا يحب. والصبر على المكروه أكبرهما وأشبههما أن يكون صاحبه مضطراً.

واعلم أنّ اللئام أصبر أجساداً، وأنّ الكرام هم أصبر نفوسا، وليس الصبر الممدوح بأن يكون جلد الرجل وقاحاً على الضرب، أو رجله قوية على المشي، أو يده قوية على العمل؛ فإنّما هذا من صفات الحمير. ولكنّ الصبر الممدوح أن يكون..."[٣]، ومثّل قوله:

"عوّد نفسك السخاء. واعلم أنّه سخاءان: سخاوة نفس الرجل بما في يديه، وسخاوته عمّا في أيدي الناس. وسخاوة نفس الرجل بما في يديه أكثرهما، وأقربهما من أن تدخل فيه المفاخرة، وتركه ما في أيدي الناس أمحض في التكرم، وأبرأ من الدنس وأنزه. فإن هو جمعهما؛ فبذل وعفّ فقد استكمل الجود والكرم"[٤].

في ترداد الدّالّين (الصّبر والسّخاء) على مساحة الوحدتين النّصّيتين إحالة للمتلقي إلى مرجعيّات قيمية ذات أصالة وحضور في وجدانه الثقافي العربي والإسلامي بل والإنساني.

وقد أقام الدّالّان مهيمناً دلاليًّا وإيقاعيًّا حقق تماسكاً وسبكاً للوحدة النّصّيّة، وجمع بين أطرافها، وربط بين متوالياتها، وأسبغ عليها استمرارية دلالية متجددة؛ مما أفضى إلى حمل المتلقي طوعاً

(١) إبراهيم، إيدير، **القصدية في الأدب الكبير لابن المقفّع (دراسة تداوليّة)**، رسالة ماجستير، جامعة مولود معمري، الجزائر، ٢٠١١، ص: ٦٤.

(٢) فرج، **نظرية علم النّصّ**، ص: ١٣٧.

(٣) ابن المقفّع، **الأدب الصغير والكبير**، ص: ٨٦-٨٧.

(٤) المصدر نفسه ص: ٨٧.

واختياراً على متابعة انتقال الدّالّين بخفّة ورشاقة من معنى فرعيّ إلى آخر، ومن أسلوب حجاجيّ يخرج من أعطاف سابقه؛ ما نتج عنه تراكم معنويّ وأسلوبيّ كانت لفظتا (الصبر والسخاء) بؤرته المركزية في كلّ حضور لهما ابتداءً من أسلوب الأمر (ذلل وعوّد)، ومن ثمّ أسلوب التفصيل بعد الإجمال، ثم أسلوب التفضيل وما رافقه من تضاد. شبكة من الأساليب الحجاجيّة تآزرت معاً في تدعيم المعنى، وتمكين طاقة الخطاب الحجاجيّة في نفس المتلقي. وهكذا تجلّى لنا أنّ في إتيان اللفظة مكررة داخل الوحدة النّصّيّة، أو في عموم النّصّ دعماً للربط الدلالي، وإضافة لأبعاد جديدة، وتحقيقًا للسبك النّصّي عن طريق امتداد عنصر من بداية النّصّ حتى نهايته؛ مما يدعّم محاور النّصّ المختلفة ويربط أواصرها.

وكان ممكنا للوحدة النّصّيّة الاستعانة بالإحالات الضميريّة، أو باختيارات لفظية أخر من ذات الحقل الدلاليّ، ولو سلك الخطاب هذا السبيل فستكون الوحدة النّصّيّة أقلّ أثراً إقناعياً في هذا المقام التخاطبيّ؛ لأنّ التّكرار قام بدور الضمائر في الربط والاتساق، ووسّع دائرة الدلالة، وعمّقها بحمولاته الدلالية الجديدة في كلّ معاودة.

وهذا اللون من التّكرار تجاوز عنه الخطاب في وحدة نصّيّة أخرى؛ فقال: "حقّ على العاقل أن يتخذ مرآتين، فينظر من إحداهما في مساوئ نفسه، فيتصاغر بها، ويصلح ما استطاع منها، وينظر في الأخرى في محاسن الناس؛ فيحلّيهم بها، ويأخذ ما استطاع منها"(١).

تبرز غاية الخطاب في هذه الوحدة النّصّيّة بما تعكسه المرآة من صورة الأنا والآخر، أو الجوانب التي على العاقل البحث عنها في انعكاسات المرآتين؛ إذ اعتدنا النظر في محاسننا وتجاوز عيوبنا، وتسليط الضوء على عيوب الآخر، وإنكار ما حسن من فعله واستعلى. فدعا الخطاب إلى الارتقاء بالذات بالبحث عن عيوبها وإصلاحها بالأخذ من محاسن الآخر حين نراه بعين الإنصاف والعدل؛ لهذا حلّت الضمائر التي تحيل إلى المرآتين محلّ التّكرار اللفظيّ؛ لأنّ ما ترمزان إليه هو بؤرة الخطاب الرئيسية، فحاضر اللفظ لم يحمل قصد الوحدة النّصّيّة، بل ما غاب وراءه واستتر من النظر الموضوعي المحايد إلى الأنا والآخر؛ وفي ذلك تأكيد على وعي الخطاب بمقام القول وغايته، فيستثمر الطرائق التي تعينه على تحقيق قصدية المتكلّم في الإنجاز والتأثير.

(١) المصدر السابق، ص: ٣٤.

وهكذا فقد كان لاختيارات ابن المقفّع اللفظية وتكراراها قدرة على التأثير في المقال الذي احتضنها، والسياق الذي ألقيت فيه؛ فكانت فاعلة مؤثرة في دلالتها وإيقاعها، وفي تشكيلها إطاراً جاذباً تتفاعل داخله، وتتدرج دلالات عديدة فرعية، وهذا هو مدار بعد الكلمة الحجاجيّ(١).

وقد وقف منظرو البلاغة الجديدة ونظريات الحجاج عند أسباب اختيار المحاجج وحدة لغويّة من بين مجموعة وحدات معلّلين ذلك وفق قانون الأنفع؛ إذ إنّ بين "وحدات اللغة تفاوتًا في درجة التعبير حجاجيًّا عن فكرة ما بحيث يعتمد التعبير بالعنصر (أ) دون العنصر (ب) تطبيقًا لقانون الأنفع حجاجيًّا"(٢)، والمهم في ذلك "أن نعرف الكلّمات أو العبارات التي كان يمكن للمتكلّم أن يستخدمها ولكنّه فضّل عليها اللفظ الذي استخدمه في خطابه، سواء أكان اللفظ المستخدم محّملاً بموقف ما، أو لفظًا محايدًا"(٣)، فالمهمّ هو أن يتبيّن المتلقي الوجه والقصد في توظيف هذا اللفظ دون ذاك، متوسلاً قانون الأنفع(٤).

وتأسيسًا على ما سبق، فإنّ " التّكرار ظاهرة أسلوبية متأصلة في نسيج الخطاب وبناه، لها دور في سبك الخطاب وتماسكه، ولها ارتباط عميق بمقاصد الخطاب. وتعدّ في الدّراسات البلاغيّة القديمة والحديثة من وسائل التأثير والإقناع، بل قد تتجاوز هذا التأثير إلى الدّفع نحو تنفيذ الفعل، وتغيير السلوك، وهي الغاية القصوى من الحجاج، وإن شئت فهي الرتبة العليا في السلم الحجاجيّ "(٥).

(١) صولة، **الحجاج في القرآن**، ص: ٦٩.

(٢) صولة، **البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة (الحجاج)**، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته، ٣٤/١.

(٣) المرجع نفسه، ص: ٣٤/١.

(٤) المرجع نفسه، ص: ٣٥/١.

(٥) سلمان، علي محمد، الحجاج عند البلاغيين العرب، ضمن كتاب **الحجاج (مفهومه ومجالاته)**، ٢٧٣/١.

الخاتمـة:

فقد جهد البحث في استجلاء الألوان التّكراريّة وأبنيتها في مدونة ابن المقفّع الأخلاقية في الأدب الصغير والأدب الكبير، ورصد أبعادها الوظيفية الحجاجيّة، ودورها في تحقيق غاية الخطاب ومقصده؛ من إحداث تغيير في منظومة المتلقي الأخلاقية. وإثر التحليل النّصّي لنماذج التراكيب التّكراريّة انتهت الدراسة إلى جملة من الرؤى والنتائج:

- اتّكل خطاب ابن المقفّع على أسلوب التّكرار، واستثمر طاقاته الحجاجيّة؛ لإيصال حمولاته القيمية إلى متلقية وتشييد دلالاتها، فبرز نمطًا لافت الدوران، واسع الحضور من أجل إقناع المتلقي بما يحمله من أفكار، وإغرائه بتبنّيها في الحياة. فتجلّى ركيزة للنصوص الموجّهة المتضمّنة للمقصديّة والنقاش.
- توسّل خطاب ابن المقفّع بثلاثة ألوان تكراريّة اقتضاها المقام التخاطبيّ، عزّزت من طاقة الخطاب الحجاجيّة التداوليّة، وحملت رؤية ابن المقفّع في حثّه المتلقي على التمسك بقيم معيّنة، وتحذيره من أخرى؛ وذلك قصد خلق حالة من التوازن القيمي في المجتمع، ومن أجل بناء شخصيّة عاقلة مهيأة لتأخذ دورها في قيادة المجتمع.
- انجلت الدراسة عن أنّ خطاب ابن المقفّع ذي النسق التّكراريّ ابتعد عن التّكرار المعنويّ ذي الدلالة الواحدة الخاصّة، واعتمد تكرارًا يقوم على معاودة معنى عامّ يهيمن على الوحدة النّصّيّة التي تنجلي في كلّ تكرار معيّن عن معنى خاص؛ الأمر الذي أفضى إلى توسّع دلالات الوحدات، وتنوّعها مع اندراجها ضمن مظلّة دلاليّة عامة في الوقت نفسه، وفي هذا مدّ للقول، وحثّ على الإذعان، وتأكيد للفكرة؛ مثل تكراره للفظة (تبع) إذ تكرر معناها العامّ وهو ارتباط شيئين وتبعيّة أحدهما للآخر، ومن غير هذه التّبعيّة لا يتحقّق النّفع من أحدهما منفصلا ، وفي كلّ تكرار لها كان كلّ من الأشياء المترابطة في حضورها مختلفا أي أنّ في الوحدة النصية معنى إطارًا، وفي داخلها معان جزئية يربط عراها ويؤطرها المعنى العامّ.
- وفي سبيل تحصين الخطاب التوجيهيّ، وتمتين دعائمه عمل خطاب ابن المقفّع على التنويع في توظيف الأساليب والتراكيب اللغوية ذات الخواصّ الوظيفيّة الحجاجيّة؛ فجاءت الوحدات النّصّيّة خاضعة لتراكيب وأساليب مكرّرة تهيمن عليها، وتعمل على توجيه دلالاتها، وكانت تتآزر معًا وتتضامُّ في سبيل تحقيق غاية الخطاب، وإبرازه مترابطًا متّسقًا، مثل سلسلة تشدّ حلقاتها بعضها بعضاً، وتتنامى كلّما تقدمنا في قراءتها.

- حقّق التّكرار بتمظهراته المتعددة في الأدب الصغير والكبير جانبًا من غايته وقصديّته، فضلاً عن جماليّاته، وإيقاعه الناجم عن الاختيارات اللفظيّة، والتركيبيّة؛ التي عزّزت من طاقة الخطاب التواصليّة، وشدّت إليها المتلقي، وجذبته إلى حمولاتها الدلالية، وحثّته على إقامة حوار مع نفسه مراجعًا منظومته الأخلاقية. وهذا يؤشّر إلى إدراك ابن المقفّع لطبيعة العقول التي يتوجّه إليها، ويبني خطابه وفق أنجع السّبل والاستراتيجيّات المعبّرة عن قصده، وأهدافه للوصول إلى متلقيه العاقل، محاولًا دفعه إلى الفعل والتغيير، مراعيًا مقام إنتاج خطابه، وأحوال متلقّيه.

المراجع

إبراهيم، إيدير، القصدية في الأدب الكبير لابن المقفّع (دراسة تداولية)، رسالة ماجستير جامعة مولود معمري، الجزائر، ٢٠١١.

أحمد علي محمد، التّكرار وعلامات الأسلوب في قصيدة نشيد الحياة للشابي، مجلة جامعة دمشق، المجلد/ ٢٦، عدد ١ + ٢، ٢٠١٠.

إستيتية، سمير، الشّرط والاستفهام في الأساليب العربيّة، المكتبة اللغويّة، ٢٠٠٠.

إسماعيل، عز الدين، جماليات السؤال والجواب، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٥.

بديدة، يوسف، بلاغة الإيجاز في الشعرية العربية، رسالة ماجستير، جامعة الحاج لخضر، الجزائر، ٢٠٠٩.

براهيمي، صوريّة، خصائص الأسلوب الخطابي في عصر الخلفاء الراشدين، رسالة ماجستير، جامعة محمد خيضر، الجزائر، ٢٠١٣.

بناني، محمد الصغير، النظريات اللسانيّة والبلاغيّة عند العرب، ط١، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٦.

جاب الله أسامة، دلالة الألفاظ في التفكير البلاغي (دراسة تحليليّة).

الحباشنة، صابر، التداوليّة والحجاج (مداخل نصوص)، ط١، صفحات للدراسات والنشر، سورية ٢٠٠٨.

حمداوي، جميل، نظريات الحجاج، شبكة الألوكة، ww.alukah.net

الحولي، فيصل، التّكرار في الدراسات النقديّة بين الأصالة والمعاصرة، ط١، دار اليازوري، الأردن، ٢٠١٥.

أبو خضر، هاني، أسلوب التفصيل بعد الإجمال وأغراضه في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، جامعة نابلس، فلسطين، ٢٠١٢.

الدريدي، سامية، الحجاج في الشعر العربي من الجاهليّة إلى القرن الثاني الهجري (بنيته وأساليبه)، ط١، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠٠٨.

الراضي، رشيد، الحجاجيات اللسانيّة والمنهجيّة البنيويّة، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته، (دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة) إشراف: حافظ إسماعيل علوي، ط١، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠١١.

زروقي، عبد القادر، أساليب التّكرار في ديوان "سرحان يشرب القهوة في الكافتيريا" لمحمود درويش (مقاربة أسلوبية)، رسالة ماجستير، جامعة الحجاج لخضر/ باتنة، الجزائر، ٢٠١٢.

سلمان، علي محمد، الحجاج عند البلاغيين العرب، ضمن كتاب: الحجاج (مفهومه ومجالاته).

السيد، عبد العزيز، التّكرار بين المثير والتأثير، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٦.

شارودو، باتريك، الحجاج بين النظرية والأسلوب، ترجمة، أحمد الوردني، ط١، دار الكتاب الجديد، ليبيا، ٢٠٠٩.

الشامي، ألطاف، العوامل الحجاجيّة في شعر البردوني (النقي أنموذجًا)، مجلة كلّية العلوم الإسلامية، جامعة بغداد، العدد ٤٣، الجزء الأول، ٢٠١٥.

الشراونة، رسمية، أسلوب الشّرط في خطب العرب ووصاياهم في كتاب "جمهرة خطب العرب" لأحمد زكي صفوت، رسالة ماجستير، جامعة الخليل، فلسطين، ٢٠٠٩.

الشهري، عبد الهادي، استراتيجيّات الخطاب (مقاربة تداوليّة)، ط١، دار الكتاب العربي، المغرب، ٢٠١٦.

صولة، عبدالله، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبيّة، ط٢، دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٧، الحجاج أطره ومجالاته من خلال مصنف في الحجاج/ الخطابة الجديدة، ضمن كتاب: الحجاج في التقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، جامعة منوبة، تونس، ٢٠١٠، البلاغة العربيّة في ضوء البلاغة الجديدة أو (الحجاج)، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته.

عبدالرحمن، طه، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط١، المركز الثقافي العربي، المغرب، ٢٠١٤، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط٤، المركز الثقافي العربي، المغرب، ٢٠١٦.

العبد، محمد، النّصّ الحجاجيّ العربيّ (دراسة في وسائل الإقناع)، مجلة فصول، مصر، عدد ٦٠.

عبيد، حاتم، التّكرار وفعل الكتابة في الإشارات الإلهية لأبي حيّان التوحيدي، ط١، دار كنوز المعرفة، عمّان، ٢٠١٥.

العزاوي، أبو بكر، الحجاج في اللغة، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر، لبنان، ٢٠٠٩.

غانية، لعاني، بلاغة النثر في العصر الأموي، رسالة ماجستير، جامعة أحمد بن بلّة، الجزائر، ٢٠١٥.

الفجاوي، مختار، خطاب العقل في أدب ابن المقفّع (وظائف الخطاب بين الحضور والغياب)، مجلة طيبة، السعودية، سنة ٢، عدد ٤٤، ١٤٣٥هـ.

فرج، حسام، نظرية علم النّصّ (رؤية منهجية في بناء النّصّ النثري)، ط٢، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٩.

القرعان، فايز، في بلاغة الضمير والتّكرار (دراسات في النّصّ العذري)، ط١، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠١٠.

الكدالي، عبدالله، تداوليّة المقام (بحث في الشروط المقاميّة في التراث النقدي والبلاغي)، ط١، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠١٧.

المبخوت، شكري، إنشاء النّفي وشروطه النحويّة الدلاليّة، مركز النشر الجامعي، تونس ٢٠٠٦.

محمود طلحة، القيمة الحجاجيّة لأسلوب القصر في اللغة العربيّة، مجلة الخطاب، الجزائر، عدد٣، ٢٠٠٨.

مفتاح، حنان، التّكرار في الخطاب الشعري، ديوان "أغاني الحياة" لأبي القاسم الشابي أنموذجًا، رسالة ماجستير، جامعة حمة لخضر، الوادي، الجزائر، ٢٠١٥.

ابن المقفّع، عبدالله (ت ١٤٢هـ/ ٧٥٩م)، الأدب الصغير والأدب الكبير، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٧.

منصور، سعيد، العقل في أدب ابن المقفّع كما يمثله الأدب الصغير، حوليات كلّية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، عدد٦، ١٩٨٣.

المودن، حسن، بلاغة الخطاب الإقناعي (نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب)، ط١، دار كنوز المعرفة، الأردن، ٢٠١٤.

الناجح عز الدين، العوامل الحجاجيّة في اللغة العربيّة، ط١، مكتبة علاء، تونس، ٢٠١١. العامل الحجاجيّ والموضع، ضمن كتاب، الحجاج مفهومه ومجالاته.

هديب، فريال، الخطاب الأخلاقي في وصايا العصر الإسلامي (مضامين وأساليب)، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، الرسالة ٥٥، حولية ٢٧، ٢٠٠٦.